شرح
المسائل الأربعة

"العلم، العمل به، الدعوة إليه، الصبر على الأذى فيه"

ويليها

"ستة أصول عظيمة مفيدة جليلة"

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

شرح وتعليق

خالد بن سليمان بن أحمد آل مسعود

الناشر

مكتبة آل ياسر

للنشر والتوزيع

الجيزة ت: ٦٢١٨٧٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مكتبة آل ياسر
للنشر والتوزيع
الجيزة - هاتف ٦٢١٨٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد

فإن الله سبحانه خلق الإنسان حارث همام كما قال النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام».

والحارث هو الكاسب العامل الذي جُبل على العمل أياً كان، والهمام هو الذي يكثر الهم الذي هو أول الإرادة، ويفكر ويعلم ويعتقد.

فالإنسان بطبعه الذي خُلق عليه لابد أن يعلم ويعتقد ويفكر، ولابد أن يعمل بذلك الإعتقاد أياً كان هذا الإعتقاد أوالعمل.

ومما يتبع العمل الدعوة إلى ذلك الإعتقاد والعمل وكذلك الصبر عليه

فصار هناك أربع مراتب في حياة الإنسان لابد في الغالب أن ينتهجها أياً كان هذا النهج.

فأما نهج الباطل فقد ترى الإنسان يعتقد ويؤمن لكن بالباطل

كما قال تعالى ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ وقال تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾.

وتراه أيضاً يعمل لكن عمل غير صالح كما قال تعالى ﴿قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ وقال تعالى ﴿وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾.

وتراه أيضاً يدعو لكن إلى الضلالة والنار كما قال تعالى ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾. وقال تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾.

وتراه يصبر ويوصي غيره بذلك لكن على ضلال كما قال تعالى ﴿وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾ وقال تعالى ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾.

والناس فيما ينتهجونه في حياتهم ملل ونحل شتى كما قال تعالى ﴿إن سعيكم لشتى﴾.

وأما نهج الحق الذي لا يقبل الله نهجاً سواه، ولا سعادة للناس ولا صلاح لهم إلا به فكما جاء في قوله تعالى ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا

بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

وهذا النهج هو طاعة الله ورسوله وأن يكون الله سبحانه هو المعبود وحده لا شريك له وإليه تنتهي المحبة والإرادة قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن الإنس إلا ليعبدون ﴾

وهذا هو أعظم فارق بين منهج الحق وغيره من مناهج الباطل وهو تحقيق العبودية لله عز وجل في هذه الحياة علماً وعملاً .

فالمنتهج لهذا النهج إن آمن آمن بالله وحده لا شريك له ، وإن عمل عمل صالحاً وإن أوصى أو دعا فبالحق وإن صبر صبر على هذا النهج دون سواه .

وهذا ما كان عليه الرسل عليهم السلام واتباعهم ، وما قام به الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم خير قيام ، فعز الإسلام وأهله وانتشر في بقاع الأرض ، وسلموا من كثير من الدخائل والشوائب والدخن .

والسرُّ باق في هذا النهج ، فإنه لا صلاح للأمة في هذا الزمان وغير إلا بالقيام بهذا النهج .كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى « لن يُصلح آخر هذه الأمه إلا ما أصلح أولها » .

ولما رأيت بُعد كثير من المسلمين فضلاً عن غيرهم عن هذا النهج عزمت بعون من الله وتوفيقه على إيضاحه من خلال هذه المسائل الأربع التي استنبطها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه

الله تعالى من سورة العصر.

وقد ذكرت في ذلك قواعد ومسائل - فيما يقتضيه المقام - لاغنى لطالب علم وداعية إلى الله تعالى عنها .

وإني أدعو أهل العلم والدعاة إلى الله تعالى أن يوضحوها لطلاب العلم وعامة الناس ويربوهم على ذلك كل بحسبه .

والله سبحانه أسأله حسن العمل

المؤلف

خالد بن سليمان بن أحمد آل مسعود

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم ○

○ اصل هذا الوجوب ما صح عنه ﷺ أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) .

وقد بوَّب الخطيب البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه» باباً في (وجوب التفقه في الدين على كافة المسلمين) (١). وذكر بسنده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن الرجل يجب عليه طلب العلم؟ فقال: أما ما يقيم به الصلاة وأمر دينه من الصوم والزكاة ـ وذكَرَ شرائع الإسلام ـ . قال: ينبغي له أن يعلم ذلك .

قال الخطيب: «فواجب على كل أحد طلب ما تلزمه معرفته مما فرض الله عليه على حسب ما يقدر عليه من الإجتهاد لنفسه . وكل مسلم بالغ عاقل من ذكر وأنثى حر وعبد تلزمه الطهارة والصلاة والصيام فرضاً، فيجب على كل مسلم تعرّف علم ذلك .

وهكذا يجب على كل مسلم أن يعرف ما يحل له وما يحرم

....

١ ـ الفقيه والمتفقه (٤٣/١)

عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأموال، فجميع هذا لا يسع أحد جهله وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك حتى يبلغوا الحلم وهم مسلمون، أو حين يسلمون بعد بلوغ الحلم .

ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الإماء على تعليمهن ما ذكرنا، وفرْض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ويرتب أقواماً لتعليم الجهال ويفرض لهم الرزق في بيت المال .

ويجب على العلماء تعليم الجاهل ليتميز له الحق من الباطل»أ . هـ

ثم ذكر بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ما أخذ الله ميثاقاً من أهل الجهل بطلب العلم حتى أخذ ميثاقاً من أهل العلم ببيان العلم للجهال لأن العلم كان قبل الجهل» أ . هـ

وقد بسط جماعة من أهل العلم هذه المسألة منهم ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله وبوَّب باباً في ذلك.

قال رحمه الله ما ملخصه : «قد أجمع العلماء أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع.

والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من

جملة الفرائض المفترضة عليه.

ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم، فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه. فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء في ذلك. وحجتهم فيه قول الله عز وجل: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ فألزم النفير في ذلك البعض دون الكل ثم ينصرفون فيعلِّمون غيرهم. والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوقه» أ.هـ .

وقال ابن القيم (١): «ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً .

فطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه؟» أ.هـ .

قلت : فيجب على المسلم أن يتعلم من شرائع الإسلام ما يقوم به في دينه إعتقاداً وفعلاً وتركاً . كما يلزمه فعل ذلك في أهله

....

١ مفتاح دار السعادة (١/١٥٦) .

ومن هم تحت ولايته وأمرهم به. قال تعالى : ﴿يا أيها الذين ءآمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ قال علي رضي الله عنه (علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم) .

وفي الصحيحين من حديث مالك بن الحويرث وفيه قال ﷺ: (إرجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم﴾.

وكذلك يلزم ولاة الأمر من العلماء والأمراء تعليم الناس أمور دينهم، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿وأولي الأمر منكم﴾: «يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله طاعتهم على العباد».

وجاء في الأثر الصحيح كما في مسند الإمام أحمد في خطبة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : (وإني أشهد الله على أمراء الأمصار إني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم ويبينوا لهم سنة نبيهم ﷺ ويرفعوا إليَّ ما عمي عليهم).

وأما ما عدا ذلك من العلم فلورثة الأنبياء ينالون به المنزلة الرفيعة عند الله تعالى.

أربع مسائل ○

○ جمع مسألة وهي من السؤال بمعنى استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى معرفة وهي هنا بالمعنى الثاني.

والمسألة غير الأصل وغير القاعدة، وسيأتي بيان كل في موضعه ـ بمشيئة الله تعالى ـ .

وأما كون هذه المسائل مما يجب تعلمه فظاهر.

فإن المصنف رحمه الله استنبط هذه المسائل من سورة العصر والتي اقسم الله تعالى في مطلعها بالعصر وحكم أن كل إنسان في خسر إلا من اتصف بهذه الصفات وقام بها، فدل ذلك على أن دين المرء لا يقوم إلا بها علماً وعملاً، وهذا مما أوجبه سبحانه وتعالى على عباده كما سيظهر في التعليق عليها فيما يلي.

(الأولى) : العلم ○

○ العلم هو أحد ركني الإيمان إذ الإيمان يقوم على العلم والعمل ولذلك نبه المؤلف على الركن الأول وأن تضمنه لفظ الإيمان إذ هو شرط في وجوده . والثاني سيأتي مفرداً.

ومنزلة العلم وأهله عظيمة . ومما جاء في ذلك قوله تعالى : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. وقال: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب﴾. وقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. وقال: ﴿ويرى الذين أتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾. وقال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. وقال: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. قال مجاهد: «ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه».

وفي الصحيحين عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

ومما يتعلق بهذه المسألة ما يلي :

أولاً : منزلة العلم وفضله :

قال ابن القيم(١) : «هو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين وهو الميزان التي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال، به يعرف الله ويعبد ويذكر ويوحد ويحمد ويمجد. وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام.

....

١ - مدارج السالكين (٢/٤٦٩-٤٧١).

والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام. قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على اجَلِّ مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح. ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف (يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين).

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومدنيهم من كرامته. ويكفي في شرفه أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتظلهم بها، وإن العالم يستغفر له من في

السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر، وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم، حتى ظفر بثلاث مسائل، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد فقال: ﴿وقل رب زدني علماً﴾، وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة، فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئاً. والله سبحانه وتعالى أعلم» أ.هـ.

قلت: وهذا الكلام القيم من ابن القيم جله إن لم يكن كله مستفاد من آيات الله تعالى وسنة مصطفاه ﷺ ذكره على وجه الإختصار، ونقلته لذلك. وقد ذكر رحمه الله تعالى في فضل العلم نحواً من ثلاث وخمسين ومائة وجه في كتابه (مفتاح دار السعادة) أتى فيها بنفائس التحقيق وروائع النقول والتعليق، جدير بطالب العلم أن يطّلع عليها.

ثانياً : أفضل العلوم وأقسامها ومراتبها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) :«والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورَّثه الأنبياء كما قال النبي ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

وهذا العلم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : علم بالله وأسمائه وصفاته، وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي.. ونحوهما .

والقسم الثاني : العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة، وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار . ونحو ذلك.

والقسم الثالث : العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها، وأقوال الجوارح وأعمالها .

وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام، ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال

١- الفتاوى (١١/٣٩٦) .

الظاهرة »أ هـ.

قلت : وإذا علم المسلم أفضل العلوم وأقسامها ومراتبها فعليه أن يقدم الأول فالأول وينتهج ذلك علماً وعملا وتعليماً ودعوة، ولا يرغب عن ذلك إلى الظن وما تهواه الأنفس .

ثالثاً: احتياج العبد إلى العلم بالحق وكون القلب إذا خلي من علم الحق كان معرّضاً لعلم الباطل.

قال تعالى : ﴿إهدنا الصراط المستقيم ○ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

قال أبو العالية : «تعلموا الإسلام فإذا علمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإن الصراط المستقيم الإسلام، ولا تحرفوا يميناً وشمالا».

قال ابن القيم(١) : «والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له وهي أعظم نعمة لله على العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

....

١- مفتاح دار السعادة (٨٣/١) .

ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يَعْلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل، أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود؟.

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ؟.

وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية عُلِمَ أن العبد أشد شيئ اضطراراً إليها» أ هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «ولهذا أمرنا الله أن نقول في صلاتنا ﴿إهدنا الصراط المستقيم ۝ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

فالضال الذي لم يعرف الحق كالنصارى، والمغضوب عليه الغاوي الذي يعرف الحق ويعمل بخلافه كاليهود.

والصراط المستقيم يتضمن معرفة الحق والعمل به، كما في

....

١- منهاج السنة النبوية (١٩/١) .

الدعاء المأثور: (اللهم أرني الحق حقاً ووفقني لاتباعه، وأرني الباطل باطلا ووفقني لاجتنابه، ولا تجعله مشتبهاً علي فاتبع الهوى).

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

فمن خرج عن الصراط المستقيم كان متبعاً لظنه وما تهواه نفسه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

وهذا حال أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة، فإنهم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ففيهم جهل مظلم» أ هـ.

قلت : وأما كون القلب إذا خلي من علم الحق كان معرضاً لعلم الباطل فقد قال ابن القيم في معرض حديثه عن سورة

العصر (١): «وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يعتبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه وخالفوه واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا يتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همَّام بالطبع كما قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء حارث وهمام).

فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مراداً يكون مُتَصوراً لها متميزاً عندها، فإن لم يتصور الحق ويطلبه ويريده تصورت الباطل وطلبته وأرداته ولا بد»أ هـ.

وقال في موضع آخر(٢) : «ومن أعرض عما جاء به الرسول ولم يعرفه ولم يتبينه ولا عارضه بمعقول أو رأي فهو من أهل الجهل البسيط وهو أصل المركب، فإن القلب إذا كان خالياً من معرفة الحق واعتقاده والتصديق به ومحبته كان معرضاً لاعتقاد نقيضه

....

١- إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (٣٩/١).

٢- الصواعق المرسلة (١١٣٢/٣).

والتصديق به»أ هـ.

قلت : وما أُتي المسلمون إلا من جهلهم بدينهم وإعراضهم عن تعلمه ونسيانهم ذكرهم الذي أنزل إليهم، والجري وراء الدنيا الزائلة، وأصبح حالهم كمن قال تعالى فيهم: ﴿ولكن متعتهم وءاباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾.

قال قتادة : «البور الفاسد، وأنه ما نسي الذكر قوم قط إلا باروا وفسدوا».

وقال تعالى : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾، وقال: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾.

ونقض الميثاق هو : ترك ما أمروا به من الواجبات، ومن أعظمها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾.

وقال تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ○ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ○ قال كذلك أتتك ءاياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾، وقال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ○ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

قال ابن القيم(١) : «فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وإفلاسه قال: ﴿يـليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾.

وكل من أعرض عن الإهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة» أهـ.

قلت : ولا عجب إذا رأينا تسلط الطواغيت والمنافقين على المسلمين يسومونهم سوء العذاب، يجهّلونهم بدينهم ويحببون إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

ثم لا عجب إذا رأينا رواج عقائد الكفار وأفكارهم ونظمهم بين المسلمين بسبب ذلك.

....

١- التفسير القيم لابن القيم (٣٥٩) .

رابعاً : طرق الناس في طلب العلم والدين :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان، وطريق شرعي.

فالطريق الشرعي هو :النظر فيما جاء به الرسول، والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها، فلا بد من علم بما جاء به وعمل به، لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فإن الرسول بيّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه. والرسل بيّنوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل. وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته.

وأما الطريقان المبتدعان :

فأحدهما : طريق أهل الكلام البدعي، والرأي البدعي، فإن هذا فيه باطل كثير، وكثير من أهله يفرّطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل. وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة.

والثاني : طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية، وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة. فإن هؤلاء يقولون: إذا

....

١- منهاج السنة النبوية (٥/٤٢٨) .

صفَّى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه، فاضت عليه العلوم بلا تعلم. وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة، بل مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ فيبقون في فساد من جهة العمل، وفساد من نقص العلم، حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول. وكثيراً ما يقع من هؤلاء وهؤلاء.

وتقدح كل طائفة في الأخرى، وينتحل كل منهم اتباع الرسول.

والرسول ليس ما جاء به موافقاً لما قال هؤلاء ولا هؤلاء ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وما كان رسول الله ﷺ ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي، ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف، بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة.

وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس، وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرده تحصل المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث.

وكلا الفريقين غالط، بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول، ولو تعبد الإنسان ما

عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمداً ﷺ إن لم يعرف ذلك من جهته.

وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته، ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾» أ هـ.

قلت : وما ذكره شيخ الإسلام تجدد في هذا العصر سواء كان في العلم أو العمل أو ما كان منهما، من الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

فترى طريقان مبتدعان وبينهما طريق شرعي وسط.

فتجد أناس يطلبون العلم ويفرّطون في العمل، ويظنون أن به تكمل النفس وتزكو، وإن دعا أحد منهم دعا إلى العلم دون العمل، فتراهم لا يفلحون لا في علم ولا عمل ولا دعوة إلى الله، بل بعلمهم هذا معرضون للفساد والإنحراف، وبالتالي العمل والدعوة إلى الله. هذا في العلم الشرعي فضلا عما سواه .

وتجد في النقيض أناس يطلبون العمل ويفرّطون في العلم ويظنون أنه به تكمل النفس وتزكو، وإن دعا أحد منهم دعا إلى العمل دون العلم، وهؤلاء كسابقيهم لا يفلحون لا في عمل ولا في

علم ولا دعوة إلى الله، وبعملهم هذا معرضون للإنحراف بالابتداع، وبالتالي العلم والدعوة إلى الله.

وأما الطريق الوسط فهو هدي محمد ﷺ من العلم والعمل معاً، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله بهما. كما قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾، فلا سبيل إلى الهدى ودين الحق إلا سبيل المصطفى ﷺ كما أنه لا سبيل إلى النجاة من الضلال إلا بالإعتصام بالكتاب والسنة. قال ﷺ: (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «وعامة هذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة كما كان الزهري يقول: «كان علماؤنا يقولون: الإعتصام بالسنة هو النجاة». وقال مالك: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله، والرسول هو الدليل الهادي الخريت في هذا الصراط، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنك شاهداً ومبشراً ونذيراً ۝ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾، وقال تعالى:

....

١- الفتاوى (٥٦/٤) .

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ۝ صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾، وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : خط رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: (هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾» أ هـ.

وقال في موضع آخر(١) : «إن كل من سلك إلى الله عز وجل علماً أو عملا بطرق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وأئمتها، فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية. فإن السائر إذا سار على غير الطريق المتهيع فلا بد أن يسلك بنيات الطريق، وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهداً فيه مخطئاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون ذنباً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون كفراً. بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فإنها أقوم الطرق، ليس فيها عوج كما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾» أ هـ.

....

١- ذكره الشيخ عبدالرحمن الدوسري في تفسيره (٢٧٧/١) .

خامساً : ما يذم من العلم وما يحرم :

قيمة العلم ونفعه وشرفه بحسب المعلوم به ومدى حاجة الإنسان إليه، وأشرف العلوم وأنفعها للخلق هو العلم بالله والعلم بوحيه.

قال ابن القيم(١) : «فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله عـز وجـل طلباً وخبراً، فهو العلم المزكي للنفوس المكمل للفطر، المصحح للعقول، الذي خصه الله باسم العلم وسمى ما عارضه ظناً لا يغني من الحق شيئاً، وخرصاً وكذباً »أ هـ.

قلت : وأما ما يذم من العلم وما يحرم فهو على أربعة أوجه، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية:

الوجه الأول : قد يذم العلم لكونه يخالف ما جاء به الرسول ﷺ وهو في حقيقته ليس علماً وإن سمي علماً، بل حقيقته الجهل، وكل ما فيه شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة. وهذا حال أكثر ما يسمى علماً، كعلم الفلسفة، وعلم المنطق والكلام، وعلم التنجيم، وعلم السحر والكهانة، وعلم دين المشركين الذي يسمى بعلم (القانون)، أو علم السياسة، او علم النفس، أو علم الإجتماع، أو علم التربية.. ونحو ذلك من العلوم التي في حقيقتها إعراض

....

١ ـ الصواعق المرسلة (٣/٨٧٦).

عن هدي الله سبحانه وتعالى، وهدي رسوله ﷺ، واتباع للأهواء والطواغيت والشياطين. كما قال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ○ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هُروت ومُروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهوائهم﴾.

قال أبو الدرداء : «لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبياءهم من البينات والهدى».

ولا شك أن تعلم مثل هذه العلوم أو تعليمها أو النظر فيها مما يحرم بل ومنها ما تعلمه أو تعليمه كفر.

وأما النظر فيها للرد عليها وكشف زيفها وتحذير الناس منها فليس ذلك إلا للراسخين في العلم ومن كان أهلا لذلك، وإلا كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

الوجه الثاني : قد يذم العلم لكون عقل الإنسان يعجز عن

فهمه وحمله، وبالتالي يكون عرضة للشك أو التكذيب به، فيكون مفسداً لدينه أكثر مما يرجى من نفعه، والمفسدة مردودة دوماً في شريعة الإسلام.

فإن الله سبحانه وتعالى لحكمة عظيمة فاوت بين أفهام الناس كما فاوت بين أرزاقهم. فعلى المعلم والداعي إلى الله أن يراعي ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «ومن المسائل المتعلقة بهذا الباب أن العلم والإيمان واجب على الناس بحسب الإمكان، فالجمل التي فرض الله تعالى على الخلق كلهم الإقرار بها مما يمكنهم معرفتها، وأما التفاصيل ففيها من الدقيق ما لا يمكن أن يعرفه إلا بعض الناس، فلو كُلِّف بقية الناس معرفته كلفوا مالا يطيقون، ولهذا لم يجب على كل أحد أن يسمع كل آية في القرآن ويفهم معناها، وإن كان هذا فرضاً على الكفاية.

ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلا لا ينضبط لنا. والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلا عظيماً، وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾، بل من الأخبار ما

....

١ - درءتعارض العقل والنقل (٧/٤٣٦، ٤٢٨) .

إذا سمعه بعض الناس ضرَّهم ذلك، وآخرون عليهم أن يصدقوا بمضمون ذلك ويعلموه. قال علي رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم».

مثل هذه الأحاديث التي سُمعت من الرسول ﷺ أو ممن سمعها منه وعُلم أنه قالها، يجب على من سمعها أن يصدق بمضمونها، وإذا فهم المراد كان عليه معرفته والإيمان به. وآخرون لا يصلح لهم أن يسمعوها في كثير من الأحوال، وإن كانوا في حال أخرى يصلح لهم سماعها ومعرفتها.

والقرآن مورد يَرِدُهُ الخلق كلهم، وكلٌّ ينال منه على مقدار ما قسم الله له. قال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾.

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لما أنزله من العلم والإيمان والقلوب التي تنال ذلك، شبَّه الإيمان بالماء النازل والقلوب بالأودية فمنها كبار ومنها صغار، وبين أن الماء كما يختلط بما

يكون في الأرض كذلك القلوب فيها شبهات وشهوات تخالط الإنسان، وأخبر أن ذلك الزبد يجفأ جفاءً، وما ينفع الناس يمكث في الأرض كذلك الشبهات تجفوها القلوب، وما ينفع يمكث فيها .

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا ورعوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به) » أ هـ .

الوجه الثالث : قد يذم العلم لكونه يدعو صاحبه أو يعينه على ما يضره، فإن تعلم العلم عمل من الأعمال يُتقرب به إلى الله ويشترط لصلاحه الإخلاص والمتابعة، وإذا فقد أحدهما فقد نفع هذا العلم وكان ضرره أكثر من نفعه. كما قال شيخ الإسلام ابن

تيمية(١) : «ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة فيكون بمنزلة السلاح للمحارب، والمال للفاجر» أ هـ.

قلت : وصح عنه ﷺ أنه قال : (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة) يعني: ريحها.

وقال : (من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار).

قال القاضي أبو بكر بن العربي(٢) : «وقد يكون العلم هلاكاً على صاحبه إذا طلبه لغير وجه الله. وفي حديث أبي عيسى - هو الترمذي - عن كعب بن مالك: (من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار).

والمعنى فيه : أن النية هي ركن العمل أو شرطه الذي لا يعتد به إلا بها، فإذا عُدِمت لم يكن شيئاً، فإذا فسدت فسد الهوى، ويكون فساده على قدر مفسده، فإن أراد مجاراة العلماء دخل في

....

١- الإستقامة (١٦٠/٢).

٢- عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي (١٢١/١٠).

باب الحسد للظهور والمباهاة على الأقران فَقَلبَ ما للآخرة للدنيا، وإن أراد مماراة السفهاء فهو مثلهم، وإن أراد صرف وجوه الناس ليكتسب الحطام فقد باع دينه بعرض من الدنيا، فهو عاص فاسق تحت رجاء الخاتمة في الموت على الشهادة، فيكون في المشيئة، أو في تزعزع العقيدة يضعفها عند الموت قوة الفتنة، أو ذهابها فيكون من أصحاب النار»أ هـ.

الوجه الرابع : قد يذم العلم لكونه لا منفعة فيه لعامة الناس أو لكونه يصد عما يحتاج إليه الإنسان أو يصده عما هو أنفع له منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «ومنه ـ أي العلم ـ ما لا منفعة فيه لعموم الخلق مثل دقائق الفلك وثوابته وتوابعه وحركة كل كوكب فإنه بمنزلة حركات التغير عندنا، ومنه ما يصد عما يُحتاج إليه فإن الإنسان محتاج إلى بعض العلوم وإلى أعمال واجبة فإذا اشتغل بما لا يحتاج إليه عما يحتاج إليه كان مذموماً »أ هـ.

قلت : وحقيقة ذلك أن الإنسان يعرض عن معرفة خالقه وبارئه وما أمره به من العبادة فيعاقب من جنس عمله وعكس مراده

....

١- الإستقامة (٢/١٦٠،١٦١) .

فينسيه سبحانه نفسه وما ينفعها وما تزكو به وما تكمل به وتسعد به في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، فتراه يشتغل بمالا ينفعه من العلم ولا يحتاج إليه ويصد عن العلم النافع الذي به فلاحه في معاشه ومعاده فيكون ذلك سبباً في شقائه في الدارين.

وما بُلي به المسلمون في هذه الأزمنة من اشتغالهم وإشغالهم بالعلوم الطبيعية والعقلية والسلوكية أكثر من العلوم الشرعية لهو أكبر مثال على ذلك.

سادساً : العلم بالدنيا والاغترار به .

إن العلم الذي جاء إطلاقه في نصوص الكتاب والسنة وورد فيه الفضل العظيم في تعلمه وتعليمه إنما المراد به العلم بالله وكتابه ودينه.

وأما علوم الدنيا فإنها داخلة فيما أمرنا به سبحانه من السير في الأرض وعمارتها بطاعته والإعداد للجهاد في سبيله ونشر دينه، وهذه العلوم مما تُعين على ذلك.

فإن الله سبحانه وتعالى ما سخر للإنسان مافي السموات وما في الأرض وميزه بالعقل وجعل له السمع والبصر والفؤاد إلا لينتفع بما فيها على وفق ما شرع الله وليعرفه بها ويعبده ويقيم

دينه ويشكره على عظيم نعمه.

وحكم تعلم هذه العلوم وتعليمها يدور مع الأحكام الخمسة من الكراهة والحرمة، ومن الوجوب والندب والإباحة، كما بينا شيئاً من ذلك فيما سبق.

والشاهد في هذا الموضع هو ما يُخشى من وضعها في غير موضعها والاغترار بها علماً وتعليماً وعملا، وكذلك الاغترار بما تحدثه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها .

وذلك بجعلها في منزلة علوم الدين أو أعلى منها والإعراض عن الغاية التي وجدت له، وجعلها سبباً لمحادة الله ورسوله والإعراض عن دينه، كما قال تعالى: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين ءامنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، وقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾،

وقال: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ○ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

قال ابن كثير : «أي كثير من الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار

الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: «والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يُصلّي»، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾: «يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال»أ هـ.

قلت: وقد بُلينا في هذا العصر بمن يعظّم الكفار، وقد أذلهم الله، ويرفع من شأنهم لحسن إتقانهم العلوم الدنيوية وقد جهّلهم الله وجعل منزلتهم أدنى من الأنعام. فتراه يسعى في إثْرهم ظاناً أن الرفعة والعزة في ذلك، وقد جهل قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

ونسوق في هذا المقام تنبيهاً للشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضوائه(١) عند آية الروم السابقة يجلو فيه الأمر.

قال ما ملخصه:

«إعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبيّن ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها

....

١ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٤٧٧)

ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وهذا جهل فاحش وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وما أعظمه، وما أحسن تعليمه.

فقد أوضح جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولا أولياً، فقد نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم وسوف يميتهم ثم يحييهم ثم يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم كما دلت علية الآيات القرآنية المذكورة، ثم لما نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم في غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره، وعاب ذلك النوع المذكور من العمل بعيبين عظيمين :

أحدهما : قلته وضيق مجاله، لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة

الدنيا، والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السموات والأرض جل وعلا، والعلم بأوامره ونواهيه وبما يُقرّب عبده منه وما يُبعّده منه، وما يُخلّد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما : هو دناءة هدف ذلك العلم وعدم نبل غايته، لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا، وهي سريعة الإنقطاع والزوال ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله: ﴿يعلمون ظاهراً﴾ أنه بدل من قوله قبله:﴿لا يعلمون﴾ فهذا العلم كلا علم لحقارته.

وقوله : ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منهاإليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها.

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾.

وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ماغفل

عنه أصحابها الكفار إذا تعلمها المسلمون وكان كلٌّ من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به، على لسان نبيه ﷺ، كانت من أشرف العلوم وأنفعها لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جل وعلا، وإصلاح الدنيا والآخرة فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالا لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته وإعلاء كلمته، ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى».أ هـ.

وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة ○

○ هذه أهم المعارف وأجلها وسيأتي بيانها في الأصول الثلاثة.

(الثانية) : العمل به ٥

٥ أي العمل بهذا العلم. والعمل هو دليل العلم والإيمان وثمرتهما. ولذا رتب سبحانه وتعالى في كتابه حصول الخير والشر والنعيم والعقاب والسعادة والشقاوة على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٥ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. قال ابن عباس: «ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً، ولا شراً في الدنيا، إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيريه الله حسناته وسيئاته، فيغفر له من سيئاته ويثيبه على حسناته، وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته فَيردُّ حسناته ويعذبه بسيئاته».

وقد ذكر أهل العلم شروطاً للعمل الصالح. وإن شئت قلت الطاعة أو العبادة أو سلوك الصراط أو نحو ذلك من الأسماء التي مقصودها واحد. نجملها فيما يلي:

الأول : الإخلاص : وهو توحيده سبحانه وتعالى معرفةً وإثباتاً وطلباً وقصداً.

وهذا الشرط من مقتضى شهادة أنَّ لا إله إلا الله، وهو يضاد الشرك وينافيه، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾.

وقال تعالى : ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾، وقال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ۝ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (بني الإسلام على خمس على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج).

وحقيقة هذا الشرط هو اللجوء والإفتقار إلى الله عز وجل والإستغناء به عما سواه، كما قال تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وقال: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «وهذا الأصل هو أصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغب، وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه» أ هـ. وقال ابن القيم عن أهل الإخلاص أهل ﴿إياك نعبد﴾حقيقةً(٢): «فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من

---

١ ـ الفتاوى (١٠/٦١٤) .

٢ـ مدارج السالكين (١/٨٣) .

الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عَدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحدٌ الخلقَ دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم» أ هـ.

الثاني : المتابعة : وهو اقتفاء أثر النبي محمد ﷺ والإهتداء بهديه علماً وعملا ودعوة وجهاداً.

وهذا الشرط من مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ. وهو يضاد الإبتداع والقول على الله بغير علم وينافي ذلك. قال تعالى: ﴿وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾، وقال: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾، وقال: ﴿ءالله أذن لكم أم على الله تفترون﴾، وقال: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا: يارسول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)، وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد).

وحقيقة هذا الشرط هو محبته وطاعته وتوقيره ﷺ ونصرته ونصرة دينه. كما قال تعالى: ﴿فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين).

وفيه أيضاً أن عمر قال: يارسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيئ إلا من نفسي، فقال: (لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك) قال: فوالذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي. قال:(الآن ياعمر).

قال ابن القيم(١) : والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة. فالله سبحانه علّق سعادة الدارين بمتابعته وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتْبَاعِه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا

١- زاد المعاد (٣٧/١).

والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

وقد أقسم ﷺ بأن (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين).

وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ثم يسلم له تسليماً وينقاد له انقياداً.

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الإتباع، لا واجب الإتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ورسوله. فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله. فلا حكم لأحد معه ولا قول لأحد معه كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنمايجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً، ومخبراً

لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالا وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة قبلت حينئذ، وإن خالفته وجب ردها واطّراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جُعلت موقوفة وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه. وأما أنه يجب ويتعين فكلا ولما »أ هـ.

وقال في موضع آخر يذكر أهل المتابعة(١) : وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه.

وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا. قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه». قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، وفي قوله: ﴿ومن

١- مدارج السالكين (١/٨٣،٨٤) ،

أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه على متابعة أمره.

وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يُرَدّ عليه أحوج ما هو إليه هباء منثوراً. وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي ﷺ: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً. فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالآراء والأهواء»أ هـ.

الثالث: ذكره الشيخ الشنقيطي في أضوائه (١) فقال:

«**أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة** لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس. قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾الآية.

فجعل الإيمان قيداً في ذلك.

وبيّن مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة، كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، وقوله: ﴿أعمالهم كسراب﴾الآية، وقوله: ﴿أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾الآية إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه»أ. هـ.

١- أضواء البيان (٨/٤).

قال ابن القيم (١): من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الإعتناء به. فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتُلي عليه، وإذا تهدم شيئ من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيئ من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمَّن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم﴾. فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضَعُفَ حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيئ.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعّث شيئ من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس. وهذا الأساس أمران:

الأول : صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

١ـ الفوائد (٢٠٤) .

والثاني : تجريد الإنقياد له ولرسوله دون ما سواه .

فأحْكم الأساس واحفظ القوة ودُم على الحمية واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصدَ القصدَ وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والإستفراغ معدوماً :

فَاقْرِ السَّلاَمَ عَلَى الحَيَاةِ فَإِنَّهَا
قَدْ آذَنَتْكَ بِسُرْعَةِ التَّوْدِيعِ »أ هـ .

قلت : وهذا الشرط داخل في الشرطين السابقين لذا اقتصر السلف الصالح على ذكرهما . ومن ذكره بعدهم فلزيادة البيان والتوضيح .

الرابع : ذكره الشيخ حافظ حكمي قال : «**صدق العزيمة** وهو شرط في وجودها ـ أي العبادة ـ».

وقال : «هو ترك التكاسل والتواني وبذل الجهد في أن يصدق قوله بفعله، قال الله تعالى: ﴿يٰأيها الذين ءامنوا لم تقولون مالا

تفعلون ۝ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ أ هـ(١).

قال ابن القيم في حديثه عن الجد والعزم(٢) : «الجد هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف، وعسى ولعل.

فهي أضر شيئ على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات. والفرق بين الجد والعزم: أن العزم صدق الإرادة واستجماعها.

والجد : صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر سبحانه وتعالى بتلقي اوامره بالعزم والجد فقال: ﴿خذوا ماءاتيناكم بقوة﴾، وقال: ﴿وكتبناله في الألواح من كل شيئ موعظة وتفصيلا لكل شيئ فخذها بقوة﴾، وقال: ﴿يايحي خذ الكتب بقوة﴾ أي بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور»أ هـ

وقال في موضع آخر(٣) :

«ليس للعبد شيئ أنفع من صدقه ربَّه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾. فسعادته في صدق العزيمة

١- اعلام السنة المنشورة ص (٣٥ -٣٦).

٢- مدارج السالكين (٤٧٠/١).

٣- الفوائد ص (٢٤٠).

وصدق الفعل. فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوّم. فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيئ من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»ا هـ.

قلت : وهذا الشرط داخل في الشرط الأول كما هو ظاهر.

هذا ما يتعلق بشروط العمل الصالح . فإذا ما أتى بها العبد على وجهها الصحيح فعليه **أن يحذر كل الحذر من إبطال أعماله** كما قال تعالى: ﴿يٰأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾. قال أبو العالية: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل».

وقال البخاري : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً . وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من

أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

ويُذكر عن الحسن : (ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق).

وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أ هـ.

(الثالثة) : الدعوة إليه ○

○ أي الدعوة إلى العلم النافع وما يثمره من الإيمان والعمل الصالح. وهو الدعوة إلى الخير والهدى وإلى الصراط المستقيم وإلى نبذ كل ما سواه، والذي لا نجاة من النار إلا بسلوكه والدعوة إلى أن يكون الله تعالى المعبود وحده لا شريك له ورسوله ﷺ المتبوع المطاع لا سواه. قال تعالى: ﴿يـاأيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، وقال تعالى : ﴿ويـاقوم مالي أدعوكم إلى النجـاة وتدعونني إلى النار﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تدعهم إلى الهدى﴾، وقال تعالى: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد ءاباؤنا﴾. والآيات في ذلك كثيرة .

والدعوة إلى الله هي من أعظم الأعمال الصالحة التي قام بها الأنبياء والمرسلون وأتباعهم، وقام بها إمامهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ على أكمل وجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من

المشركين﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ما ملخصه(١):

فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، **وذلك يتضمن** الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن الدرجات الثلاث وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان. داخلة في الدين.

وأصل الدين عبادة الله وحده لا شريك له. كما اتفق على ذلك جميع الرسل. قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

فالدعوة إلى الله : الأمر بعبادته، وحبه وحب كل ما أحبه ومن أحبه، وبغض كل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر. فمن الدعوة إلى الله: النهي عما نهى عنه، ولا تتم الدعوة إلى الله إلا بذلك سواء كان من الأقوال الباطنة أو الظاهرةأو من الأعمال الباطنه أو الظاهرة كالتصديق بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته، والمعاد وما أخبر به عن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء السابقين وأممهم وأعدائهم،

١- مختصر الفتاوى المصرية (٣١٠-٣١٤).

وكإخلاص الدين لله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وكالتوكل عليه والرجاء لرحمته، وخشية غضبه وعذابه، والصبر لحكمه.. وأمثال ذلك، وكصدق الحديث وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، وكالجهاد في سبيل الله بالقلب والبدن واللسان.

إذا تبين ذلك: فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ على طريقه، وهم أمته الذين يدعون إلى الله تعالى، كما دعا هو إليه، ويتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾. وهذا واجب كفائي على كل الأمة إن قام به طائفة سقط عن الباقين.

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله تعالى، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة. فلا تجتمع أمته على ضلالة.

وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فيجب على كل من يقدر على شيئ أن يدعو إليه من تعليم العلم والجهاد والعمل وتبيين الأمر وغير ذلك.

والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى سبيله، وسبيله ﷺ تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد

من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية.

والقيام بالواجب من الدعوة الواجبة وغيرها بثلاثة شروط، كما جاء في الحديث ﴿ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه).

فالتفقه ليعرف به، والرفق ليسلك به، وهو أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود، والحلم ليصبر على الأذى، فكثيراً ما يحصل له الأذى كما قال تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ بعد أن قال: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر). وقوله تعالى لنبيه: (ولربك فاصبر)، وقوله: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ وهو كثير في القرآن والسنة.

لكن للآمر أن يدفع عن نفسه، فإذا أراد المأمور أن يؤذيه فله أن يدفع أذاه عن نفسه قبل الإيقاع به، أما بعد وقوع الأذى والتوبة فيصبر ويحلم.

والكمال حال نبينا ﷺ، فقد ثبت أنه ما انتقم لنفسه، ولا ضرب خادماً ولا زوجة ولا دابة، ولا نيل منه فانتقم لنفسه، إلاأن تنتهك حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيئ حتى ينتقم لله.

والإنسان قد تُزين له نفسه أن عفوه عن ظالمه ذل، فتلزمه أن لا

بد أن يجزيه عليه. وليس كذلك فقد ثبت عن النبي ﷺ في صحيح مسلم: (ثلاث إن كنت لحالفاً عليهن، ما زاد الله عبداً بالعفو إلا عزاً، وما نقصت صدقة من مال، وما تواضع أحد لله إلا رفعه).

فالذي ينبغي للإنسان أن يعفو عن حقه ويتوقى حدود الله تعالى بحسب الإمكان. قال تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾.

قال النخعي: كانوا يكرهون أن يُستذلوا، فإذا قدروا عفوا. قال الله تعالى: ﴿هم ينتصرون﴾ يمدحهم بأن فيهم همة الإنتصار للحق والحمية، ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذلا بل هذا مما قد ذم به الرجل.أ. هـ

قلت : هذه بعض الأصول والقواعد في الدعوة إلى الله بثها شيخ الإسلام في ثنايا كلامه على قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

وسيأتي في تفسير سورة العصر وفي آخر الكتاب مزيداً من الفوائد والقواعد في الدعوة إلى الله .

(الرابعة) : الصبر على الأذى فيه ○

○ أي الصبر على ما يلاقيه العبد المسلم من الأذى في الدعوة إلى العلم النافع والعمل الصالح، وما يتضمنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، والجهاد في سبيل الله.

فإنه لا بد لسالك هذا الطريق ومقيم هذا النهج العظيم من الإبتلاء والمحن والفتنة، لحكمة عظيمة أرادها الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، وقال تعالى: ﴿آلم ○ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ○ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾. قال ابن عباس: «كان الله يبعث النبي إلى أمته فيلبث فيهم إلى انقضاء أجله في الدنيا ثم يقبضه الله إليه فتقول الأمة من بعده ـ أو من شاء الله منهم ـ: إنا على منهاج النبي وسبيله، فينزل الله بهم البلاء، فمن ثبت منهم على ما كان عليه فهو الصادق، ومن خالف إلى غير ذلك فهو الكاذب»، وقال تعالى: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾، وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾، وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

وفي الصحيح عن أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: (قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون)، وفي رواية: وهو متوسد بردة وقد لقينا من المشركين شدة. وصح عنه ﷺ أنه قال: (لقد أخِفْتُ في الله وما يُخافُ أحد، ولقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيئٌ يوارية إبطُ بلال). قال الترمذي: «ومعنى هذا الحديث حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال. إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمله تحت إبطه» أ هـ.

قال ابن القيم ما ملخصه(١):

«وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الإبتلاء والإمتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الإبتلاء والإمتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّه تُجنى من قطوف الإبتلاء والإمتحان.

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من الإصطفاء والأجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه، فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر فقال: ﴿انه كان عبداً شكوراً﴾، فوصفه بكمال الصبر والشكر.

---

١ ـ مفتاح دار السعادة (١/٢٩٩ ـ ٣٠١).

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلا لنفسه وأمر رسوله وخليله محمد ﷺ أن يتبع ملته.

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليماً، وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفعه إلى أعلى السموات واحتمل له مالا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ﷺ، وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيئ منه من عينه ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاساات الأمر الشديد بين فرعون وقومه، ثم من بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه واحتماله في الله، وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم

وفخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله مالم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله. فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعة.

وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلا وساقه بها إلى أعلى المقامات

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له.

ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، وجعل خلاقه ونصيبه فيها. فهو يأكل منها رغداً ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب.

يُمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو

آمن، ويحزنون وهو في أهله مسروراً، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد، همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله، وتسمع كلمته، لزم من ذلك ما لزم ورضي من رضي وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر من التعب.

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها

فاعبر إليها على جسر من التعب » أ هـ.

قلت: ولهذا أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى ما يُعينهم في إقامة هذا النهج العظيم وما يلاقونه من المحن والبلاء في ذلك ألا وهو الصبر وجعله سبحانه أصلا من أصول النجاة في هذه الحياة، ولهذا قرنه بأعمال الإسلام وخاصة أفضلها وأعظمها: الدعوة إلى الله.

قال ابن القيم(١) :

«قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً .

وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً :

الأول : الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿يـاأيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾، وقوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، وقوله: ﴿اصبروا وصابروا﴾، وقوله: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾.

الثاني : النهي عن ضده. كقوله: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾، وقوله: ﴿ولا تولوهم الأدبار﴾ فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله: ﴿فلا تهنوا ولا تحزنوا﴾ فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث : الثناء على أهله. كقوله تعالى: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾، وقوله: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾. وهو كثير في القرآن.

١- مدارج السالكين (٢/١٥٢-١٥٦) .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿والله يحب الصابرين﴾.

الخامس : إيجابه معيته لهم ،وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ليست معية عامة. وهي معية العلم والأحاطة كقوله: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾، وقوله: ﴿والله مع الصابرين﴾.

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾، وقوله: ﴿وإن تصبروا خير لكم﴾.

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿ولنجزين الذين صبرواأجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾.

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاءلهم بغيرحساب. كقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

العاشر : ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، ومنه قول النبي ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر).

الحادي عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾.

الثاني عشر : الإخبار أنه ما يلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاؤها بالحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾، وقوله: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾، وقوله في أهل سبأ: ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾، وقوله في سورة الشورى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ۝ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ۝ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بالصبر واليقين تنال

الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾.

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان كما قرنه الله سبحانه وتعالى باليقين وبالإيمان والتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر»، وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنه ضياء» وقال: (من يتصبر يصبره الله).

وفي الحديث الصحيح: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). وقال للمرأة السوداء التي كانت تصرع فسألته أن يدعو لها: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك) فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها. وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة،

وأخبر (أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى).

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب، فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال: (ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر)أ هـ.

والدليل

○ قال ابن القيم(١) : **إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل،** ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وان قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول.

قال الحسن: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا تضروا بالعلم. فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا .أ هـ.

قلت : وجاء في وصف حال السلف الصالح عن ابن سيرين أنه قال: «كانوا يرون أنهم على الطريق ما كانوا على الأثر».

وقال سفيان : «وجدت الأمر الإتباع».

١- مفتاح دار السعادة (٨٢/١) .

قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ ○

○ أقسم سبحانه وتعالى بالعصر وهو الدهر، ولإقسامه بذلك عدة حكم منها:

أولا : أن الدهر يشتمل على آيات الرب سبحانه وتعالى الدالة على كمال قدرته وحكمته وعظيم خلقه، وعلى وحدانيته سبحانه واستحقاقه العبادة دون غيره ، فالدهر أعظم آية لمعتبر متفكر متعقل.

قال ابن القيم(١) : أقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم، منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء والظلام والحر والبرد، وانتشار الحيوان وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات، وما دونها، آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته» أ هـ.

ثانياً : أن الدهر هو زمان أفعال العباد الرابحة والخاسرة، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، والتي عليها مدار الجزاء في الدنيا والآخرة.

١- التبيان في أقسام القرآن (٥٣).

قال ابن القيم(١) : «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها، على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين. خيراً وشراً. تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمة الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثناء الذين ءامنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين» أ هـ.

قلت : وفي ذلك تنبيه على أهمية الوقت والإعتناء به ، إذ هو حياة الإنسان وعمره .

ثالثاً : أن الإقسام بالدهر تعظيم لشأنه وتنبيه لنفي ما يضيفه الإنسان إليه من الخسران والمكاره والنوائب ونحوها . والإقسام بالشيئ تعظيم له، وما يضاف إليه الخسران والمكاره لا يُعظّم عادة . وفي الصحيح عنه ﷺ قال: (قال الله عز وجل: يؤذيني ابن

١- التبيان في اقسام القران (٥٣) .

آدم. يسب الدهر وأنا الدهر. أقلب الليل والنهار)

وقال: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر).

رابعاً : أن الله أقسم بالدهر على ما فيه من تقلب العصور والأزمان والدول والأديان والطرق والمناهج على أنها كلها باطلة خاسرة إلا ما استثناه وهو منهج المفلحين الناجين.

وفي ذلك دلالة على وحدة دين الأنبياء وأتباعهم الذين حققوا هذا النهج العظيم.

كما أن فيه حث وتنبيه إلى النظر والاعتبار في سنن الله في عباده مؤمنهم وكافرهم افراداً وامماً، دولا وقرى، والتي تتعلق بدينه وأمره ونهيه، ممن قام بهذا النهج أو أعرض عنه. فإنها سنن لا تتبدل ولا تتحول. قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، وقال تعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾.

﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ ○

○ أقسم سبحانه وتعالى بالعصر على أن كل إنسان في هلاك ونقص وخسران، إلا من استثناهم واتصفوا بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقد دلت الآية على عدة أمور:

أولا : أن لفظة ﴿خسر﴾ جاءت مُنَكَّرة لتدل على التفخيم والتعظيم والمبالغة في الخسارة. أضف إلى ذلك لام التأكيد. ولا شك أن من أخل بشيئ من هذه الصفات لحقه من الخسارة بحسبه.

ثانياً : أن في تنكير لفظة ﴿خسر﴾ دلالة على العموم. فدل ذلك على أن الخسارة مراتب متعددة متفاوته كل بحسبه، ويدخل في ذلك المسلم والكافر. فالمسلم قد يخسر من بعض الوجوه دون بعض بحسب إخلاله بهذه الصفات الأربع، لكن بإيمانه يكون له مطلق النجاة فينجو من الخلود في النار.

أما الكافر فله الخسار المطلق لخسارته الدنيا والآخرة، وفواته النعيم واستحقاقه الجحيم. وعليه فلا تكون النجاة التامة إلا لمن كمل هذه الأمور الأربعة.

ثالثاً : أن في لفظة ﴿خسر﴾ دلالة على أن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا بائع متجر، كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها).

وقد صار الناس في هذا السوق ثلاثة أصناف. صنف رابح وصنفان خاسران.

فأما الصنف الأول : فهم المؤمنون الذين تاجروا مع الله التجارة الرابحة التي لا خسارة فيها، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾.

واستجابوا لنداءه في أعظم تجارة ﴿يـاأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ○ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ○ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ○ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾. فباعوا أنفسهم وأموالهم لله، والثمن الجنة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك الفوز

العظيم﴾.

أما الصنف الثاني : فهم المنافقون الذين تاجروا مع الله في بعض التجارة لكنهم غشوا وخادعوا وكذبوا وخانوا، فكانت لهم الخسارة الفادحة. كما قال تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾. ومن اتجر وخسر أشد ممن لم يتجر أصلا وهو خاسر، لذا كان حالهم في النار ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾.

وأما الصنف الثالث : فهم الكفار الذين استغنوا عن هذه التجارة، قال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾.

قال ابن القيم في معرض حديثه عن أثر المعصية وكيف أنها تُنْسي العبد نفسه وتفسد عليه تجارتَه(١): «ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم غداً عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل

١- الداء والدواء(١٩١- ١٩٥)

أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته، فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا واتجروا، وباعوا آجلا بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائباً بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم:

خُذْ ما تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سمعتَ به.

وكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غيرها؟. وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾، وقال فيهم: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾.

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتتقطع عليها النفوس حسرات.

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بباق، وخسيساً بنفيس وحقيراً بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها. فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة

حلم، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة. قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها ○ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ○ إنما أنت منذر من يخشاها ○ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾، وقال تعالى: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ﴾، وقال تعالى : ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ○ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ○ قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ○ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ○ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾.

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما علموا قلة لبثهم فيها وأن لهم داراً غير هذه الدار هي دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر و(كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها). ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه

حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك الفوز العظيم﴾.

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويامن لا يقدر على هذا الثمن هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن. ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾.

﴿يـاأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ○ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

والمقصود : أن الذنوب تُنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة. وكفى بذلك عقوبة. والله المستعان»أ هـ.

﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ ٥

٥ أي ءامنوا بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ الإيمان الصادق الذي لا شك فيه، واعتقدوا الإعتقاد الصحيح الذي لا ضلال معه. كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾.

فذكر سبحانه كمال تصديقهم وهو الإيمان بالله والرسول بلا شك ولا ريب والذي هو كمال العلم واليقين.

وذكر كمال طاعتهم وإسلامهم وهو الجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم والذي هو ذروة سنام الإسلام.

وبذلك شهد الله بصدقهم في قولهم: ﴿ءامنا بالله﴾ دون غيرهم بقوله ﴿أولئك هم الصادقون﴾.

فهذه أول صفاتهم وأعظم ما قاموا به.

قال ابن القيم(١) : «إن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها .

والإيمان له ركنان :

---

١ - مفتاح دار السعادة (٨١/١) .

أحدهما : معرفة ما جاء به الرسول والعلم به .

والثاني : تصديقه بالقول والعمل .

والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فإنه فرع العلم بالشيئ المصدق به. فإذاً العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة. فالعلم إذاً أجل المطالب وأسنى المواهب»ا هـ.

وقال شيخ الإسلام ما ملخصه(١) : إن لفظ الإيمان مأخوذ من الأمن، كالإقرار من قَرَّ. فالمؤمن صاحب أمن، كما أن المقر صاحب إقرار، فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا علم أن محمداً رسول الله، ولم يقترن به حبه ولا تعظيمه بل كان يحسده فإنه ليس بمؤمن بل هو كافر. ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فمجرد علم القلب لا يكفي بل لا بد من عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب واتباعه له، بل أشد الناس عذاباً عالم لم ينفعه الله بعلمه، كما قال ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع).

فإن من المعلوم أن الإنسان يعلم بقلبه الحق وقد يبغضه لغرض آخر، فليس كل مستكبر عن الحق يكون غير عالم به، فحينئذ لا

---

(١) ...ر الفتاوى المصرية (١٣٣) .

بد من تصديق القلب وعمله. وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل.

وأبو طالب وإن كان عالماً بأن محمداً رسول الله وهو محب له: فلم تكن محبته له كمحبة الله بل لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره، فَلِمَا كان يحصل له به من الشرف والرياسة فأصل محبوبه الرياسة، ولهذا لما عرض عليه النبي ﷺ الشهادة عند الموت أحب دينه أكثر من دين ابن أخيه فلم يقرَّ به لئلا يزول عن دينه، فلو كان حبه كحب أبي بكر رضي الله عنه وغيره من المؤمنين لنطق بالشهادتين قطعاً، فلهذا كان حبه حباً مع الله لا حباً لله، فلم يقبل الله منه ما فعله مع الرسول من نصرته ومؤازرته لأنه لم يعمله لله، بخلاف أبي بكر الذي فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى.

فهذا يحقق أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهما من أعمال القلب، فلا بد من إخلاص الدين لله، والدين لا يكون ديناً إلا بعمل صالح» أ هـ.

﴿وعملوا الصالحات﴾ ○

○ أي أدوا ما أمرهم الله تعالى به ورسوله ﷺ من الفرائض وكل عمل صالح، واجتنبوا ما نُهوا عنه، وقاموا بذلك ظاهراً وباطناً .

وهذا هو الأصل الثاني من أصول نجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وهو ثمرة العلم النافع والإيمان الصادق وركنهما الركين .

قال ابن القيم(١) : «وعلى حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أعماله وأقواله ولها نور وبرهان، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس.

وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل، وهكذا يكون نوره الساعي بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نور وجهه في القيامة، والله المستعان وعليه الاتكال» أ هـ.

وقال في موضع آخر(٢) : «العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتمر به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد

١- الوابل الصيب (١٣٠) .

٢- مفتاح دار السعادة (٨٢/١) .

الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له. فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود.

فالعلم هو الميزان وهو المحك. قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾، قال الفضيل بن عياض: «هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: ياأبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.»

وقد قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم. فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة. وقد قال الله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله

من المتقين﴾، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره. وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيئ وأجله وأفضله. والله أعلم» أ هـ.

﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ○

○ أي أوصى بعضهم بعضاً بالحق وهو: الإيمان والعمل الصالح، وهو الخير كله.

وكما أن المسلم يلزمه تكميل نفسه بالإيمان والعمل الصالح، فكذلك عليه أن يكمل غيره بذلك، ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وهذا هو شأن المؤمنين، كما وصفهم الرسول ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). وقال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً). قال النووي(١) «هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة، والتعاضد في غير إثم ولا مكروه» أ هـ

وقوله: ﴿تواصوا﴾ أي عهد بعضهم إلى بعض. تقول تواصى النبت إذا اتصل وكثر. وفي ذلك دلالة على إتصالهم وترابطهم.

وهذا الإتصال والترابط يتحقق بالدعوة إلى الله والتي تشمل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولزوم جماعة المسلمين.

١- مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٣٩)

فأما الدعوة إلى الله فقد سبق الكلام عنها اجمالاً(١).

وأما النصيحة. ففي الصحيح عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

قال النووي: «هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام».

وقال ابن رجب: «وقد أخبر النبي ﷺ أن الدين النصيحة، فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل عليه السلام وسمى ذلك كله ديناً ، فإن النصح لله يقتضي القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها ، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضاً »أ هـ(٢).

وقال أبو عمرو بن الصلاح: «النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلا»أ هـ(٣).

وقال الخطابي: «ومعنى الحديث: عماد الدين وقوامة النصيحة

١- في المسألة الثالثة: (الدعوة إليه) (٥٤-٥٨).

٢- جامع العلوم والحكم (٨٨) .

٣- جامع العلوم والحكم (٩٠) .

كقوله: (الحج عرفة) أي عماده ومعظمه عرفه»اهـ.

وقال النووي: «**وأما تفسير النصيحة. وأنواعها** فقد ذكر الخطابي وغيره من العلماء فيها كلاماً نفيساً أنا أضم بعضه إلى بعض مختصراً. قالوا:

أما النصيحة لله تعالى: فمعناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص، والقيام بطاعته واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه، وجهاد من كفر به، والإعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف في جميع الناس أو من أمكن منهم عليها. قال الخطابي: وحقيقة هذه الإضافة - أي إضافة النصيحة لله - راجعة إلى العبد في نصحه نفسه، فالله تعالى غني عن نصح الناصح.

وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى : فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيئ من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع

أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والإعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته.

وأما النصيحة لرسوله ﷺ : فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي: ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا

يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور.

وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر: فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم إلى الطاعات، وقد كان من السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه. والله أعلم» أ هـ(١).

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف

١- مسلم بشرح النووي (٣٧/٢).

وينهون عن المنكر﴾. قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «وكذلك وصف الله الأمة بما وصف به نبيها حيث قال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، وقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة»، فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس فهم أنفعهم لهم وأعظمهم إحساناً إليهم لأنهم كمَّلوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر. من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد. وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم. وهذا كمال النفع للخلق» أ هـ.

وقال النووي(٢) : «واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضُيّع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى

١- الإستقامة (٢/٢٠٢).

٢- مسلم بشرح النووي (٢/٢٤).

بعقابه ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته ولا يهابن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن الله تعالى قال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، وقال: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾، وقال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون ○ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

واعلم أن الأجر على قدر النصب ولا يتاركه أيضاً لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها. ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته وأن يعمنا بجوده ورحمته والله

أعلم»أ هـ.

وأما لزوم جماعة المسلمين. فقد صح عنه ﷺ قوله: (ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط مِنْ ورائهم). وقال:(إن الله يرضى لكم ثلاثاً: ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) قال شيخ الإسلام ابن تيميه(١):« فقد جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين، وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والأخره. وبيان ذلك ان الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده. فحق الله ان نعبده ولا نشرك به شيئاً كما جاء لفظه فى أحد الحديثين. وهذا معنى إخلاص العمل لله كما جاء فى الحديث الآخر. وحقوق العباد قسمان: خاص وعام، أما الخاص: فمثل بر كل إنسان والديه، وحق زوجته وجاره. فهذا من فروع الدين، لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية.

وأما الحقوق العامه فالناس نوعان: رعاة ورعيه فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعيه لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم لاتتم إلا

١- الفتاوى (١/ ١٨،١٩)

باجتماعهم، وهم لا يجتمعون على ضلاله بل مصلحة دينهم ودنياهم فى اجتماعهم واعتصامهم بحبل الله جميعاً . فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسره فى الحديث الذى رواه مسلم عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة) قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك له، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي: مناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم، فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة. وأما النصيحة الخاصة لكل واحد منهم بعينه فهذا يمكن بعضاً ويتعذر استيعابها على سبيل التعيين»أ هـ.

قلت : وقوله : (فإن دعوتهم تحيط مِنْ ورائهم). دعوتهم هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله. كما في حديث الحارث الأشعري: (فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله). فبلا إله إلا الله صرنا مسلمين وبذلك سُمّينَا كما قال تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين﴾، وعليها اجتمعنا وإليها دَعينا وبها ولأجلها قاتلنا، كما قال تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾. قال مجاهد: «كلمة التقوى لا إله إلا الله».

قال ابن القيم(١) : وقوله: (فإن دعوتهم تحيط مِنْ ورائهم) هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوهم عليهم، فتلك الدعوة هي دعوة الإسلام وهم داخلونها لما كانت سوراً وسياجاً عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته» أ هـ.

ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق﴾:

أولا : أن ذكر التواصي بالحق مع اندراجه في العمل الصالح دل على **أهمية هذا المقام مقام الدعوة إلى الله وما يندرج فيه** من النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي وكل ما من شأنه ربط الناس بكلمة التوحيد وجمعهم عليها بما شرعه الله تعالى.

١- مفتاح دار السعادة (٧٣/١) .

قال ابن القيم - في شرحه أثر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -(١) : «وقوله: (ودعاته إلى دينه): الدعاة جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة. وإضافتهم إلى الله للإختصاص أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً.

قال تعالى : ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾. قال الحسن : «هو المؤمن أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله.»»

فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد. قال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾، وقال تعالى: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. قال الفراء

١- مفتاح دار السعادة (١/١٥٣،١٥٤) .

وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في ﴿أدعو﴾ يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكّر بالقرآن والموعظة. ويَقْوَى هذا القول من وجوه كثيرة. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إلى الله﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه مِنْ أتْبَاعِه على بصيرة. والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه. وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء »أ هـ.

ثانياً : فإذا علم المسلم ذلك فعليه إذا علم الحق وعمل به أن يبادر إلى التواصي به مع الناس، والدعوة إليه كما قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾. قال الحسن: «هو المؤمن عمل صالحاً ودعا إلى الله

تعالى».

وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. قال ابن القيم(١): «وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: ﴿أدعو إلى الله﴾ ثم يبتدئ ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ فالقولان متلازمان. فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله. فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه. فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم. والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل من ربه وضمن له حفظه وعصمته من الناس وهؤلاء المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه، وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً .

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو . لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم. جعلنا الله تعالى منهم بمنه و كرمه.

١- التفسير القيم لابن القيم (٤٣٠) .

وهم كما قال عمر بن الخطاب في خطبته التي ذكرها ابن وضاح في كتاب الحوادث والبدع له، إذ قال:

«الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصّرون بكتاب الله أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هَلَكَة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم. يغلبونهم في سالف الدهر، وإلى يومنا هذا، فما نسيهم ربك. وما كان ربك نسياً، جعل قصصهم هدى، وأخبر عن حُسْن مقالتهم، فلا تَقْصِر عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضيعة».

وقال عبد الله بن مسعود: «إن لله عند كل بدعة كِيْدَ بها للإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها، وينطق بعلاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله».

ويكفي في هذا قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضاً: (لأن يهدي بك الله رجلا واحداً خير لك من حُمر النَّعم)، وقوله ﷺ: (ومن أحيى شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين) وضم أصبعيه، وقوله: (من دعا إلى الهدى فاتُّبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى يوم القيامة).

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم، والحظ الجسيم بشئ من علمه، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»أ هـ.

ثالثاً : أن التواصي والدعوة إلى الله وما تتضمنه لا يكون إلا بالحق، الذي هو وحي الله سبحانه وتعالى، وهذا نهج الأنبياء وأتباعهم إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾. وقال في هذه الأمة: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾. وقال: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾. وقال: ﴿وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾. قال الربيع بن أنس: «حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر».

فإنه لاهدي إلا هدي الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾. وفي صحيح البخاري في خطبة عمر لما توفي النبي ﷺ قال: «أما بعد: فاختار الله لرسوله ﷺ الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم فخذوا به تهتدوا، ولما هدى الله به رسوله».

وعليه رابعاً : أن كل من دعا إلى الله بغير الحق فقد دعا إلى بدعة وضلالة، ودعوته باطلة فاشلة مهما تحلت بالصلاح وتسمَّت به، وظهر لضعيف البصيرة حسنها. فإن هذا الداعي وإن كان قصده الله سبحانه وتعالى لكنه سلك طريق الضلالة في الوسيلة. فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل ليعرفوا الناس بخالقهم وما يستحقه من العبادة، ولا سبيل لذلك إلا بوحيه، فلذلك أنزل معهم كتبه فدعوا إليها ودعوا بها، كما قال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

وإذا كان هذا شأن الرسل صفوة خلق الله فلا طريق لمن دونهم في الدعوة إلى الله إلا طريقهم.

وقد قال تعالى في شأن أفضل الدعاة إلى الله وأكثرهم تابعاً يوم القيامة: ﴿يـاأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ○ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾. قال ابن عباس: ﴿داعياً﴾ إلى لا إله إلا الله، ﴿بإذنه﴾ بالقرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع ديناً لم يأذن به الله، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ○ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾، خلاف الذين ذمهم في قوله: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾، وقد قال تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾. ومما يبين ما ذكرناه: أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، كما قال تعالى: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين:

أحدهما : المقصود المراد.

والثاني : الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة» أهـ.

وقال في موضع آخر(٢) - بعد أن ذكر آية الأحزاب - : «فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، والشرك بدعة. والمبتدع يؤول إلى الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا

١- الفتاوى (١٥/١٦١،١٦٢) .

٢- إقتضاء الصراط المستقيم (٤٥٢) .

وفيه نوع من الشرك. كما قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ »أ هـ.

وقال في موضع آخر (١) : «وكل من دعا إلى شيئ من الدين بلا أصل من كتاب الله وسنة رسوله فقد دعا إلى بدعة وضلالة، والإنسان في نظره مع نفسه ومناظرته لغيره إذا اعتصم بالكتاب والسنة هداه الله إلى صراطه المستقيم، فإن الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وقد قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾، وقال تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾. وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: (إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)، وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في سياق حجة الوداع: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله تعالى). وفي الصحيح أنه قيل لعبد الله بن أبي أوفى: هل وصى رسول الله ﷺ بشيئ؟ قال: لا . قيل: فَلِمَ، وقد كتب الوصية على الناس؟ قال: وصى بكتاب الله.

١ـ درء تعارض العقل والنقل (٢٣٤/١).

وقد قال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾، وقال تعالى: ﴿يـاأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيئ فردوه إلى الله والرسول﴾ ومثل هذا كثير.

وأما إذا كان الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له، وفي مقام النظر أيضاً فعليه أن يعتصم أيضاً بالكتاب والسنة ويدعو إلى ذلك، وله أن يتكلم مع ذلك ويبين الحق الذي جاء به الرسول بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبين بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله، وأمر المعاد وغير ذلك من أصول الدين، وأجاب عن معارضة المشركين، كما قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثلا إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ »أ هـ.

قلت : ومسلم علم أن من شروط النجاة من الخسران في الدارين التواصي بالحق، جدير به أن يسعى في إقامة هذا الشرط.

﴿وتواصوا بالصبر﴾

○ أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر.

والصبر هو: حبس النفس عن الجزع والتسخط، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله، واعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه. كما قال سعيد بن جبير رحمه الله: «الصبر إعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه. وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر».

قال ابن القيم: فقوله: «اعتراف العبد لله بما أصاب منه» كأنه تفسير لقوله: ﴿إنا لله﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد. وقوله: «راجياً به ما عند الله» كأنه تفسير لقوله: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ أي نُرّد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة. وقوله: «وقد يجزع الرجل وهو يتجلد» أي ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على

القدر فليس بصابر» أ هـ(١).

قلت : **والصبر على ثلاثة أنواع:** صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على ابتلاء الله.

وهذا النهج العظيم يحتاج إلى الصبر بأنواعه الثلاثة في جميع مراتبه، وهذا يدل على عظم شأن الصبر كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى -.

فالإيمان يحتاج إلى صبر في إقامته وتحقيقه معرفةً وتصديقاً وإقراراً ومحبةً وانقياداً وخضوعاً لما جاء به الرسول ﷺ، ومعرفة ضد ذلك وبغضه واجتنابه والبعد عنه.

ويحتاج إلى صبر في إقامة شعبه وإتمامها، وكذا في تكميله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء لله والمنع لله وفي توحيده سبحانه وتعالى، وهذا من أعظم الصبر على طاعة الله.

ويحتاج العبد للمحافظة على إيمانه والإبقاء عليه إلى الصبر عن معصية الله فإنها قد تذهب به بالكلية أو تنقصه وتضعف قوته وثمرته. كما صح عنه ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن. فإياكم إياكم والتوبة

---

١ - عدة الصابرين (٩٩،١٠٠).

معروضة بعد).

قال ابن القيم في معرض بيانه للأسباب المنشئة للصبر عن المعصية (١): «السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب ورجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحُرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته» اهـ.

قلت : وهذا من أعظم الصبر عن معصية الله تعالى.

ويحتاج العبد إلى الصبر على ما يلقاه نتيجة التحلي بالإيمان والقيام به ابتلاء من الله كما قال تعالى: ﴿آلم ۝ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون ۝ ولقد

١- طريق الهجرتين (٤٤٨).

فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

قال ابن القيم(١) : «فالناس إذا أُرْسِل إليهم الرسل بين أمرين؛ إما أن يقول أحدهم: آمنت ، أو لا يؤمن بل يستمرّ على السيئات والكفر، ولا بد من امتحان هذا وهذا.

فأما من قال: آمنت فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه ليتبين هل هو صادق في قوله: آمنت ، أو كاذب. فإن كان كاذباً رجع على عقبيه وفر من الإمتحان كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقاً ثبت على قوله ولم يزده الإبتلاء والإمتحان إلا إيماناً على إيمانه. قال تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

وأمّا من لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوبتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم.

فلا بد من المحنة في هذه الدار وفي البرزخ وفي القيامة لكل أحد، ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية. فإن الله يدفع عنه بالإيمان، ويحمل عنه به ويرزقه من الصبر والثبات والرضى والتسليم ما يُهوّن به عليه محنته.

١- إغاثة اللهفان (٢/٢٧٦،٢٧٧) .

ـ وأما الكافر والمنافق والفاجر فتشتد محنته وبليته وتدوم، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة. والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعيم ابتداء ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم ألبتة» أ هـ.

قلت: وهذا من أعظم صبر العبد على ابتلاء الله تعالى.

ولعظم مكانة الصبر من الإيمان قرن الله سبحانه وتعالى بينهما في مواضع عدة من كتابه. وبين أنه من أعظم صفات المؤمنين التي استحقوا بها الجنة، كما قال تعالى: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.

وورد عن ابن مسعود وغيره من السلف عند قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ قال: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» أ هـ.

وصح أنه سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: (الصبر

والسماحة). قال ابن القيم(١): «هذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها. فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به واعطاؤه. فالحامل عليه: السماحة.

وترك ما نهيت عنه، والبعد عنه. فالحامل عليه: الصبر.» أ هـ.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الأيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِع الرأس بار الجسم. ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له، وقال: الصبر مطية لا تكبو».

وكذلك العمل الصالح يحتاج إلى صبر على إقامته وتحقيق شروطه ليكون عملا خالصاً لوجه الله تعالى موافقاً لسنة نبيه ﷺ مصحوباً بعزيمة صادقة مبني على عقيدة صحيحة. وكذا الصبر على إتمامه وتكميله. وهذا من الصبر على طاعة الله.

ويحتاج العبد للمحافظة على عمله الصالح وبقائه وبقاء ثمرته إلى الصبر عن ما يفسده ويُحبطه من الشرك والرياء وإرادة الدنيا بالعمل الصالح ونحو ذلك من المعاصي المحبطة للعمل الصالح. كما قال تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا

١- مدارج السالكين (٢/١٦٠).

وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ○ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا لالتماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة. وحبط عمله الذي كان يعمل، وهو في الآخرة من الخاسرين»

قال ابن القيم(١) : «ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تُحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه. فالرياء وإن دق محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تُحصر، وكون العمل غير مقيد باتباع السنة أيضاً موجب لكونه باطلا، والمن به على الله تعالى بقلبه مفسد له، وكذلك المن بالصدقة والمعروف والبر والإحسان والصلة مفسد لها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والآذى﴾، وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات، وقد قال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. فحذَّر سبحانه المؤمنين من

١- الوابل الصيب (١٦) .

حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردَّة بل معصية يُحْبَط بها العمل وصاحبها لا يشعر بها.

فما الظن بمن قدّم على قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه. أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر» أ هـ.

وقال في موضع آخر في معنى هذه الآية(١): «قال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾، أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لاتقولوا خلاف الكتاب والسنة. وروى العوفي عنه قال:«نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه».

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل. وقال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه. أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم» أ هـ.

١- إعلام الموقعين (١/٥١).

قلت : ويحتاج العبد للصبر أيضاً على ما يبتليه الله سبحانه وتعالى في عمله الصالح.

قال شيخ الإسلام(١) : «وكذلك ما يؤذي الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما أُبتلي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات من رئاسة وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك، فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونها . فإن في العلم والامارة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والحج والصوم والزكاة من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها . ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور . فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه، كما تطمع مع القدرة، فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة بخلاف حالها بدون القدرة . فإن الصبر مع القدرة جهاد بل هو من أفضل الجهاد وأكمل من ثلاثة أوجه:

أحدها : أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

١- الفتاوى (١٠/٥٧٥) .

الثاني : أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

الثالث : أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني كمن خرج لمصلاه أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح»أ هـ.

قلت : ولهذا قرن سبحانه وتعالى الصبر بالأعمال الصالحة في غير موضع من كتابه عموماً للعمل الصالح وخصوصاً لافراده كالصلاة والرحمة. قال تعالى: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾. وقال تعالى: ﴿ويْلَكُم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾، وقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾. والآيات في ذلك كثيرة .

وكذلك التواصي بالحق والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وما يدخل فى ذلك يحتاج الى صبر فى اقامتها فإنها من أعظم العبادات ولهذا قرن الله سبحانه وتعالى هناالتواصى بالحق بالتواصى بالصبر. وقال تعالى ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنه وجادلهم

بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ ٥وقال تعالى ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلواذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدّوهم)

قال شيخ الإسلام ابن تيميه(١) :فالإنسان يحتاج الى معرفة المنكر وإنكاره وقد يحتاج إلى الحجج المبينه لذلك، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إراده جازمه وقدرة على ذلك، وذلك لا يكوّن إلا بالصبر كما قال تعالى﴿ والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾١هـ

قلت والقائم بهذه العبادات العظيمه قد يقع منه خلاف ما أمُر به أومعصية تُخل بها وبالتالى يفقد ثمارها المرجوة. ومن

١- الفتاوى (١٥/٣٣٨)

ذلك الغضب والإستعجال كما قال تعالى منبهاً الدعاة إلى الله وعلى رأسهم إمامهم نبينا محمد ﷺ ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لايوقنون﴾، وقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾، وقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ قال قتاده:(لا تعجل كما عجل ولا تُغاضب كما غضب)

فإن أعداء الله من المنافقين والمشركين إذا رأوا ظهور الحق وصدق القائمين به احتالوا لإفساده واخماده ودبروا لذلك فيستخفون بالدعاة إلى الله سبحانه وتعالى وهذا من عظيم مكرهم. وذلك إما بالإستهانه بهم واهانتهم أو اغضابهم واستفزازهم وإزالة حلمهم أو استجهالهم وحملهم على طاعتهم واتباعهم فى غيهم كما قال تعالى عن فرعون ﴿فاستخف قومه فاطاعوه﴾ .

ونحو ذلك مما هو داخل فى الإستخفاف وهو عدم الثبات على الدين لذا أمر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيه بالصبر واليقين اللذَين بهما السلامة من هذا الداء العظيم، فبالصبر يدفع ما يزيّنه له أعداء الله من الشهوات، وباليقين وهو كمال العلم والإيمان يدفع ما يلقيه عليه اعداء الله من الشبهات، وبدون الصبر واليقين لا يحصل له الثبات على الدين.

قال ابن القيم(١) : «فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت، يقال أيقن إذا كان مستقراً، واليقين استقرار الإيمان فى القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري: إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك. قال تعالى ﴿ وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ »أ هـ.

قلت : وفي الصحيح عنه ﷺ أ نه قال: (والصبر ضياء). وهذا من جوامع كلمه ﷺ. فإن الصبر نور يضيئ لصاحبه دربه الذي يسير عليه ويكشف له حقائق الأمور وعواقبها، ويوضّح له مراد أعدائه ومكرهم فيسلم من الزلل والإستعجال ويظفر بمراده وكما قيل من صبر ظفر.

وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو».

قال النووي(٢) : «والمراد أن الصبر محمود لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب»أ هـ.

١- الفوائد(٢٧٥) .

٢- مسلم بشرح النووي (١٠١/٣)

قلت : والتواصي بالحق وما يدخل فيه من الدعوة إلى الله ونحوهاهي من العبادات المتعلقه بالغير، ولهذا قد يحصل للقائم بهاأذى فيفتتن ويبتلى إما من عصاة المؤمنين أومن المنافقين والمشركين،وخير ما يعينه على ذلك هو الصبر. فبه يدفع كيد الأعداء، وبه يحصل له الظفر والتمكين كما قالت الرسل لأعدائهم ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ وقال تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾، وقال تعالى ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾، وقال تعالى ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذىً كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾. وكما أوصى لقمان ابنه ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ قال سعيد بن جبير: «إذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذى وشدة فاصبر عليه (إن ذلك) يعنى هذا الصبر على الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(من عزم الأمور) يعنى من حق الأمور التى امر الله تعالى»

قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور

رحيم﴾(١) «فليس بمن قد فُتن بفتنة دواءٌ مثلُ الصبرِ، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له، ومخلصة من الذنوب، كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة. فالفتنة كيرُ القلوب ومحك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب. قال تعالى ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

فالفتنة قسمت الناس إلى قسمين إلى صادق وكاذب ومؤمن ومنافق وطيب وخبيث. فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ونجاة بصبره من فتنة منها ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها»أ هـ

قلت : وفي الحديث الصحيح (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم).

وكذلك الصبر يحتاج إلى صبر كما في الحديث (ومن يتصبر يصبره الله)

قال ابن القيم في الفرق بين الصبر والتصبر والإصطبار

١ـ اغاثة اللهفان (٢/٣٣٥ـ ٣٣٦)

والمصابره ما ملخصه(١): «الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة مالا يحسن إن كان خلقاً له وملكة سمى صبراً. وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبراً، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (ومن يتصبر يصبره الله) وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية كذلك سائر الأخلاق.

واما الأصطبار فهو: أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر فإنه بمنزلة الإكتساب فالتصبر مبدأ الإصطبار، كما أن التكسب مقدمة الإكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة فهي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاغبه والمضاربه. قال الله تعالى ﴿ياآيها الذين آمنوا اصبروا وصابرو ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامه على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا

١- عدة الصابرين (١٨).

يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فاخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر. فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته»أ هـ.

قلت : ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ ما يلي:

اولاً : تخصيص الصبر بالذكر مع اندراجه تحت التواصي بالحق بيان لأهميته وتنبيه على الإعتناء به وأنه لا كمال للإنسان في جميع احواله إلا به.

قال ابن القيم(١): «الصبر سبب في حصول كل كمال فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص. فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل،ولهذا في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه:(اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد) ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق

١- طريق الهجرتين (٤٤٠) .

الصبر، فلو علم العبد الكنز الذى تحت هذه الأحرف الثلاثه أعني اسم(الصبر) لما تخلف عنه. قال النبي ﷺ (ما أعطي أحد عطاءً خيراً واوسع من الصبر) وقال عمر ابن الخطاب: خير عيش أدركناه بالصبر. وفي مثل هذا قال القائل

نزه فؤادك عن سوانا والقنا فجنا بنا حل لكـــل منزه
والصبر طلسم لكنز وصلنـــا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه
فالصبر طلسم على كنز السعاده من حله ظفر بالكنـــز أ هـ.

قلت : وقد سبق بيان احتياج المراتب الأربع التي بها نجاة العبد وسعادته وكماله إلى الصبر.

ثانياً : اقتران التواصي بالصبر مع التواصي بالحق فيه دلالة على أنه لا يمكن للعبد أن يصبر على هذا النهج العظيم ويثبت عليه إلا بإيمان كامل يطمئن قلبه به وينعم بحلاوته ويقين صادق يهوّن عليه مصائب الدنيا. فإن اليقين هو دليل استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً. قال ابن مسعود: (اليقين الإيمان كله) ومن أعظم التواصي بالحق التواصي باليقين. ولهذا كان من دعائه ﷺ (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا) وكان ابن مسعود يقول: اللهم زدنا

ايماناً ويقيناً وفقهاً. وصح عنه ﷺ انه قال: (سلوا الله اليقين والمعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة). قال الحسن البصري: صدق رسول الله ﷺ باليقين طُلبت الجنه، وباليقين هُرب من النار، وباليقين أوتيت الفرائض ، وباليقين صُبر على الحق، وفي معافاة الله خير كثير قد والله رأيناهم يتقاربون في العافية فلما نزل البلاء تفارقوا»

قال ابن القيم ما ملخصه(١) : «اليقين هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة، ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه وأثنى عليهم بقوله ﴿وبالأخرة هم يوقنون﴾، وقوله تعالى ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يوقنون﴾، وقوله في حق خليله ابراهيم ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ وذم من لايقين عنده فقال ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن خثيمه عن عبد الله بن مسعود يرفعه (لا ترضين أحد بسخط الله ولا تحمدن أحد على فضله ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في

١- مفتاح دار السعادة(١/١٥٤) .

الشك والسخط) فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نوراً وانتفى عنه كل ريب وشك وعوفي من أمراضه القاتله وامتلأ شكراً لله وذكراً له ومحبة وخوفاً فحيّ عن بينة. واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان وعليهما ينبني وبهما قوامه وهما يمدان سائر الأعمال القلبيه والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وقوتها

وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم» أ هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميه(١) : «ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويغتذي به وهو اليقين.

كما في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (ياآيها الناس سلوا الله اليقين والعافية فإنه لم يُعط أحدٌ بعد اليقين خيراً من العافية فسلوهما الله)» أ هـ.

وقال في موضع آخر:(٢) : «فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا بخلاف غيرهم فإن الإبتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه. قال تعالى:﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ ألا ترى إلى قوله تعالى:﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. فهذه حال هؤلاء. وقال تعالى: ﴿ياآيها الذين آمنوا

١- الإستقامة(٢/٢٦١) .

٢- الفتاوى(٣/٣٣٠) .

اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ إلى قوله: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ الآيتين. وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء:

أحدها: تدبر القران

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق.

الثالث: العمل بموجب العلم»أ هـ.

قال ابن القيم(١): وعلى حسب اليقين يكون الصبر المقدور وقال تعالى:﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عُدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم. ولوحصل لهم اليقين والحق لصبروا وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف

١ـ التبيان في أقسام القران/٥٥

طائش تلعب به الأهواء والشهوات كما تلعب الرياح بالشئ الخفيف والله المستعان»أ هـ.

ثالثاً : أن من التواصي بالحق التواصي بالمرحمة، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصبر في قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾، وتخصيص المرحمة من الحق دليل على أهمية ذلك الأمر وأن المسلم ينبغي له أن يرحم ويوصي غيره بالمرحمة في تعامله مع الخلق وخاصة المؤمنين كما جاء في الصحيح عنه ﷺ أنه قال (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمّى).

وكذلك إذا وصّى غيره بالحق فعليه أن يرفق ويرحم فإن الداعي إلى الله يحتاج مع الصبر إلى أن يرحم، وحتى لا يختلط عليه الأمر فيظن قسوة القلب صبراً.

وفي الصحيحين عن مالك بن الحويرث قال: (أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً فظن أنّا قد أشتقنا أهلنا فسألنا عن مَنْ تركنا من أهلنا فأخبرناه فقال أرجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم

وعلّموهم ومروهم فإذا حضرت الصلاة فلؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمّكم أكبركم)

قال شيخ الإسلام(١) : «وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾، وفي الرحمة: الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها. فإن القسمة أيضاً رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم. كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، فبصبره يقوى وبلينه يرحم، وبالصبر يُنصر العبد، فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى. كما قال النبي ﷺ: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)، وقال: (من لا يَرحم لا يُرحم)، وقال: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)، وقال: (الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) »أ هـ.

١- الفتاوى (١٠/٦٧٧) .

وقال في موضع آخر(١) : «وكذلك إذا أمر غيره بحسن، أو أحب موافقته له على ذلك، أو نهى غيره عن شيئ. فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصوده من حصول المحبوب واندفاع المكروه. فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك.

ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً في الصدقات. وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، وقال تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ فلا بد أن يصبر وأن يرحم. وهذا هو الشجاعة والكرم.

ولهذا يقرن الله تعالى بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلى الخلق، وبينها وبين الصبر تارة .

ولا بد من الثلاثة: الصلاة والزكاة والصبر. لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم، لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد، فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهما »أ هـ.

قلت : ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: (الإيمان الصبر والسماحة).

١- الإستقامة (٢/٣٦٢) .

وقال ابن القيم في الفرق بين الصبر والقسوة (١): «والفرق بين الصبر والقسوة: أن الصبر خُلُق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الإنفعال وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله» أ هـ.

رابعاً : أن الصبر على الحق والدعوة إليه والجهاد في سبيله دليل على صدق الإيمان وعظم المحبة لله عز وجل.

قال ابن القيم(٢) : «الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها، فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته. ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة. لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى. فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت إلا الصابرون. فلولا تحمل المشاق

١- الروح (٣٢٤) .

٢- مدارج السالكين (٢/١٦٢) .

وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾، ثم أثنى عليه فقال: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان كما تقدم فجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولوا الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما تقدم ذلك»أ هـ.

خامساً : أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. قال ابن عيينة: «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»

قال ابن القيم(١) : فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم لصبرهم ويقينهم إذ بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى»أ هـ.

١- إعلام الموقعين (١٣٥/٤) .

قلت : وقد دلت السورة بمجموعها على أمور جديرة بالذكر والبيان منها:

أولا : أن الترتيب في هذا النهج العظيم لازم، وبدونه يحصل الخلل والخسران ولا يستقيم لصاحبه أمر. فلا قيمة لعمل لم يسبقه إيمان صادق وعقيدة صحيحة. قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ قال مجاهد: «أخبر الله ان الإيمان هو العروة الوثقى وأنه لا يقبل عملا إلا به، ولا يحرم الجنة إلا على من تركه». وقال قتادة: «لا والله لا يقبل الله عملا إلا بالإيمان».

وقد قال تعالى في شأن المنافقين وأمثالهم الذين يشاركون المؤمنين بظاهرهم ويتسمون بأسمائهم ويشاركونهم في بعض العبادات الظاهرة رياء وسمعة: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾. فلعدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم.

وقال في شأن الكافرين الذين قد يأتي بعضهم بأعمال صالحة لم تقم على أساس الإيمان ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾، وقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾، وقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾، وقال: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾. والآيات في ذلك كثير.

ولا قيمة أيضاً للتواصي بالحق والدعوة إلى الله تعالى مالم يسبقه عمل بطاعة الله كما قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

وفي الحديث الصحيح: (رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار. فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟» وفي الصحيحين قال ﷺ: (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يافلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه).

وكذلك لا قيمة للصبر إن لم يكن صبر على الحق، وعلى هذا النهج العظيم. قال ابن القيم(١): «والصبر نوعان: نوع على المقدور. كالمصائب، ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر على النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر،

١- التبيان في أقسام القرآن (٥٥).

والبر والفاجر لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: (مرها فلتصبر ولتحتسب)، وقال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وقال تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ وقال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾ فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى» أ هـ.

قلت : وهذا شأن الكافرين والمنافقين وأهل الفساد فإنهم يتواصون بالصبر لكن على غير حق لأنه لا يتم لهم باطلهم ولا يقوم إلا بالصبر كما قال تعالى: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾. وقال تعالى فيما قالوه تحذيراً من شأن الرسول ﷺ: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾.

وعليه لا يُستدل بالصبر على صحة العمل والدعوة حتى يكون صبراً على الحق.

ثانياً : أن كل مرتبة ثمرة لما قبلها ودليل على وجودها وصحتها. فإن عدمت الثمرة دل على خلل المرتبة السابقة أو عدمها وإن ادعاها مدعي.

فالعمل الصالح ثمرة عاجلة للإيمان ودليل على صحته، ولهذا قرن سبحانه وتعالى بينهما في كتابه في مواضع كثيرة . قال تعالى: ﴿إن الذين ءامنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾. وقال: ﴿إلا من تاب وءامن وعمل عملا صالحاً﴾.

وفي الصحيحين قال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت).

قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرؤننا عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

وقد ذم سبحانه الذين يدّعون الإيمان وهم لم يأتوا بمقتضاه، قال تعالى: ﴿قالت الأعراب ءامنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾.

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. من قال حسناً وعمل غير صالح رده الله على قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾».

وعنه أيضاً قال: «اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فإن الله لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه فإذا سمعت قولا حسناً فرويداً بصاحبه فإن وافق قوله فعله فنعم ونعمة عين».

وقد وردت أحاديث وآثار في الترهيب ووعيد من ترك العمل بما علم إذ العلم هو أصل الإيمان. سبق ذكر شيئ منها. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع) وذكر منها: (وعن علمه ماذا عمل فيه).

وترك العمل بالعلم وعدم الانتفاع به سبب لذهابه واندراسه وبالتالي سبب لهلاك الأمم كما أخرج الحاكم ـ وغيره ـ ووافقه الذهبي على تصحيحه عن ابن لبيد الانصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا أوان ذهاب العلم» قال شعبة: أو قال: «أوان انقطاع العلم» قالوا: كيفه وفينا كتاب الله تُعلّمه أبناؤنا أبناءهم.

قال: «ثكلتك أمك ابن لبيد ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل

المدينة، أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله التوراة والإنجيل لم ينتفعوا منه بشيء».

وعن علي رضي الله عنه أنه ذكر فتناً تكون في آخر الزمان فقال له عمر: متى ذلك ياعلي؟ قال: «إذا تُفقه لغير الدين وتُعلِّم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: «إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: ياعويمر. فأقول: لبيك رب. فيقول: ما عملت فيما علمت».

وقال الحسن البصري: «لا يصح القول إلا بعمل، ولا يصح قول وعمل إلا بنيه، ولا يصح قول وعمل ونية إلا بالسنة».

كما ذم سبحانه المنافقين الذين يدعون الإيمان لكن أعمالهم تنبئ بما في قلوبهم على كذب هذا الإدعاء. لأنهم يأتون من الأعمال ما يقدح في الأيمان أو ينافيه.

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ۝ يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾. قال قتادة: «هذا نَعْتُ المنافق نَعَتَ عبدا خائن السريرة، كثير الاخلاف يعرف بلسانه وينكر بقلبه، ويصدق بلسانه ويخالف بعمله، ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويتكفأ تكفؤ السفينة، كلما هبت ريح هب فيها».

وقال تعالى: ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾. وقال: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل إليك﴾ الآيات، وقال: ﴿يٰأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾.

وقال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول ءامنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العلمين ○ وليعلمن الله الذين ءامنوا وليعلمن المنافقين﴾. قال مجاهد: «أناس يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم أو أموالهم فتنوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة».

قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن الصراط المستقيم (١) قال: «فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى عنه ورسوله فيتركه. هذا هو طريق الله وسبيله، ودينه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا الصراط المستقيم يشتمل

---

١ - - مجموعة الرسائل (١ـ٣/٢٢٥) .

على علم وعمل، علم شرعي وعمل شرعي، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغيرالعلم كان ضالا. وقد أمرنا سبحانه أن نقول: ﴿إهدنا الصراط المستقيم ۝ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. قال النبي ﷺ: (اليهود المغضوب عليهم، والنصارى ضالون) وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به والنصارى عبدوا الله بغير علم. ولهذا كان السلف يقولون: احذر فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. وكانوا يقولون: من فسد من العلماء ففيه شبه باليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى» أهـ.

وقال في موضع آخر(١) : «والعبد إذا عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم. كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾ وقال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾.

وإذا ترك العبد العمل بعلمه عاقبه الله بأن يضله عن الهدى وأن لا يعرفه الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾.

وفي الحديث: (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى

١- مختصر الفتاوى المصرية (١١١/١).

تعلو كل قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾. رواه الترمذي وصححه» أ هـ.

وكذلك التواصي بالحق وما يتضمنه من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أعظم الأعمال الصالحة وأشرفها ودليل على الإيمان وكماله ودليل على حسن العمل. كما قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾. قال الحسن: «هو المؤمن عمل صالحاً ودعا إلى الله تعالى».

وقال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾. وقال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. فأخبر سبحانه وتعالى أن دليل اتباعك للرسول ﷺ هو الدعوة إلى الله بدعوته.

وقال : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

وفي الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك

أضعف الإيمان). وفي الصحيح أيضاً (ليبلّغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يُبلّغ من هو أوعى له منه).

وصح عنه أنه قال: (نضَّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مُبلّغ أوعى من سامع). وقال: (بلغوا عني ولو آية).

فالاسلام والحق ليس مقصوراً على أشخاص وأجناس معينة بل هو ذكر للعالمين ولا يتم ذلك إلا بقيام أهله به والدعوة إليه.

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك منذ أول لحظة من إسلامهم وسعوا في تطبيقه. كما جاء في الصحيحين في قصة قدوم وفد عبد القيس وفيها قالوا: (فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة). وكما في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه قال: «فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يانبي الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام»(١).

وبهذا نفهم السر الحقيقي لسرعة انتشار الإسلام في الجيل الأول لهذه الأمة وقوته، والسر باق في تطبيق هذا النهج العظيم إلى يوم القيامة.

بل حتى الجن فقهوا ذلك كما قال تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما

---

١ - ـ أنظر زاد المعاد (٣/٦٢٤) .

قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾.

وقد أشرنا إلى شيئ من ذلك عند قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق﴾.

كما ذم سبحانه في المقابل أهل الكتاب من الأمم السابقة ومن شابههم من هذه الأمة على كتمان ما أنزل الله وترك بيان الحق للناس ودعوتهم إلى الخير. قال تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾، وقال: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾، وقال: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ٥ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾، وقال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾. قال الحسن: «لَيَتَكَلَّمُنَّ بالحق وَلَيُصَدِقُنَّهُ بالعمل». وصح عنه ﷺ أنه قال: (من سُئل علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار﴾.

ومن الكتمان ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي به

قوام الناس وبدونه فسادهم وهلاكهم، كما قال تعالى فيمن تركه: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ○ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ○ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خـلدون﴾. وصح عنه ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم). وفي الصحيح قال: (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً). والأحاديث في ذلك كثيرة .

وكذلك التواصي بالصبر هو من أعظم الحق الذي يتواصى عليه. ودليل على كمال الإيمان وعلى حسن العمل والدعوة إلى الله. كما أن فقده دليل على خلاف ذلك.

وقد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ مما

يغني عن إعادته.

ومما سبق يتبين أن الناس متفاوتون في إقامة هذا المنهج بين هالك لا نجاة له، وبين مستحق للعقوبة ناج من الخلود في النار وبين ناج نجاة مطلقة. قال ابن القيم(١) : «فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾. ﴿فالأيدي﴾: القوي في تنفيذ الحق. ﴿والأبصار﴾: البصائر في الدين. فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله.

القسم الثاني: عكس هؤلاء. من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، الذين رؤيتهم قذى العيون وحُمَّى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

١- الداء والدواء (١٧٣).

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

والقسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يمّيز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحماً، والدواء النافع سماً.

قال الله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين.

فقال الله تعالى: ﴿والعصر ○ إن الإنسان لفي خسر ○ إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضاً به، ويرشده إليه ويحضه عليه» أ هـ.

ثالثاً : ان هذا النهج العظيم كما هو نهج عامة الناجين من هذه الأمة فهو نهج أئمتهم من الأنبياء والدعاة إلى الله.

فالداعي إلى الله لا يبلغ الكمال في دعوته ولا ينال درجة الإمامة في الدين إلا بذلك. كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾، وقال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾.

قال ابن القيم(١) : «فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا

١- زاد المعاد (١٠٠٩/٣).

ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه، فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات»أ هـ.

رابعاً : وعليه فإن أي داعي أو دعوة لا تنتهج هذا النهج علماً وعملا ودعوة، فهي دعوة باطلة ولو تسمَّت باسم الإسلام والصلاح. وعلى قدر إخلالها بهذا النهج العظيم على قدر ما يكون باطلها وفشلها وخسارتها في الدنيا والآخرة.

ومن باب أولى ان أي فرد أو مجتمع أو دولة أو أمة لا تنتهج هذا النهج العظيم في حياتها ولا تبالي أتت به أم لا ولا تتقي ما يقدح فيه وينافيه فهي أمة خاسرة في الدنيا والآخرة، مهما بدا لضعيف البصيرة حسن العمل، قال تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.

خامساً : أن من قام بهذا النهج العظيم وكمله فقد تكفل الله له بالنصرة والتمكين والعزة والتأييد ودفع كيد الأعداء. قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، وقال تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ۝ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾، وقال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ۝ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ۝ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وصح عنه ﷺ أنه قال: (بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب).

وقال في وصيته لابن عباس: (واعلم أن النصر مع الصبر)، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع فأُتينا برطب من رطب ابن طاب،

فأوكّتُ الرفعةَ لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب).

قال النووي(١) : «قوله: (برطب من رطب ابن طاب): هو نوع من الرطب معروف يقال له رطب ابن طاب، وتمر ابن طاب وعذق ابن طاب وعرجون ابن طاب، وهي مضاف إلى ابن طاب رجل من أهل المدينة.

وقوله: (وإن ديننا قد طاب): أي كمل واستقرت أحكامه وتمهدت قواعده» أ هـ.

قلت : وصح عنه ﷺ أنه قال: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال).

وقال تعالى : ﴿فاصبر إن العاقبة للتقوى)، وقال: ﴿والعاقبة للتقوى﴾.

قال ابن القيم(٢) : «والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح ونصره وصبره على قومه، فقال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾. أي عاقبة النصر لك

١- مسلم بشرح النووي (٣١/١٥) .

٢- إغاثة اللهفان (٣٦٨،٣٦٧/٢) .

ولمن معك كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه.

وكذلك قوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾، وقال: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، وقال إخباراً عن يوسف أنه نُصِر بتقواه وصبره فقال: ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، وقال: ﴿يأيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ والفرقان هو العز والنصر، والنجاة والنور الذي يُفَرِّق بين الحق والباطل. وقال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيئ قدراً﴾. وقد روى ابن ماجة وابن أبي الدنيا عن أبي ذر رضي عنه عن النبي ﷺ قال: (لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم) »أ هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) :

«وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة. قال الله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، وقال الله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾، وقال تعالى: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ○ هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ○ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾، وقال إخوة يوسف له: ﴿أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع

١- دقائق التفسير (٢/٢٩٩،٣٠٠) .

أجر المحسنين﴾ »أ هـ.

سادساً : ان سعادة الدارين منوطة بإقامة هذا النهج العظيم، وبدونه تكون الشقاوة والهلكة قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

جاء عن ابن عباس في قوله: ﴿حياة طيبة﴾ قال: «السعادة».

والسَّعادة: هي توفيق من الله للعبد لنيل الخير، وهي تشمل ما ورد في تفسير هذه الآية من الرزق الحلال والعمل الصالح والقناعة. فإنها من أعظم أسباب سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم(١) : «والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الأخرة خير ولنعم دار المتقين﴾. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم

١- الداء والدواء (٣١٧،٣١٨) .

متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾.

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، وهو النعيم على على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: (حِلَقُ الذِّكْرِ) »أ هـ.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: « **لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم** » .○

○ عقَّب المؤلف رحمه الله بقول الشافعي لبيان أهمية هذه السورة وما حوته من مسائل جليلة ومنهج عظيم. **وتتجلى أهمية هذه السورة فيما يلي:**

أولا : انها من السور المكية التي تمتاز ببيان أصول الدين وقواعده التي تبنى عليها أمور الشريعة.

ولا يمكن للإنسان أن يقوم بدين الله وشريعته إذا لم يُقم أصولها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله فإنه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول. ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما

١- الفتاوي ١٣/١٦٠ ضمن رسالة الفرقان بين الحق والباطل.

هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أ هـ.

وسيأتي بيان أهمية الأصول وكيف أن المسلم يحتاج إليها في قيامه بهذا الدين وفي دعوته إليه.

ثانياً : أنها اشتملت على أهم مقاصد القرآن الكريم.

فالإيمان والعمل الصالح فيما يتعلق بين العبد وربه. والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فيما يتعلق بين العبد والناس.

ثالثاً : أنها تضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني. التي لا كمال للإنسان إلا بها.. ومن طلب الكمال في غيرها خسر.

قال ابن القيم(١) : «قوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾. قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

وبيان ذلك: أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه

١- مفتاح دار السعادة (٥٦/١) .

السورة بالعصر إن كل أحد في خسر ﴿إلا الذين آمنوا﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدّقوا به. فهذه مرتبة. ﴿وعملوا الصلحت﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق. فهذه مرتبة أخرى. ﴿وتواصوا بالحق﴾ وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً. فهذه مرتبة ثالثة. ﴿وتواصوا بالصبر﴾ صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات. فهذه مرتبة رابعة. وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية. فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير» أ هـ.

رابعاً : وبالتالي فهي مشتملة للمطالب العالية لصاحب الهمة العالية والمقاصد العظيمة لمن أراد الكمال.

قال ابن القيم بعد حديثه عن الإصطفاء والترقّي في درجات

الكمال وأن أهل الكمال هم المصطفين عند الله تعالى(١)قال: «فكيف يحسن بذي همة قد أزاح الله عنه علله وعرَّفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون حيواناً وقد أمكنه أن يصير إنساناً وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملِكاً، وبأن يكون ملِكاً وقد أمكنه أن يكون مِلكاً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فتقوم الملائكة في خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الأمر إلى العلم وثمرته والله الموفق.

وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته. كما قال بعض السلف: إذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة. وصدق القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شيئ أقبح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يُكدِّرون الماء ويُغلُّون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد. فقدهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء»أ هـ.

١- مفتاح دار السعادة (١/١١٠).

خامساً : وإذا كان فيها الكمال الإنساني فإنه بالتالي يكون فيها كمال السعادة للإنسان في الدارين. والتي لا سعادة له إلا بها. كما قال ابن القيم(١): «إنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالإجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملا، وكمال هذه السعادة . بأمرين آخرين:

أحدهما : دعوة الخلق إليه.

والثاني : صبره واجتهاده على تلك الدعوة .

فانحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة:

أحدها : العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

والثانية : العمل به.

والثالثة : نشره في الناس ودعوتهم إليه.

والرابعة : صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقاً :

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم

فقد وضحت للسالكين عيانا »أ هـ.

١- زاد المهاجر إلى ربه (٣٥،٣٦) .

وقال في موضع آخر(١) : «وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه وتعالى أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، وخالفوه واتبعوا غيره »أ هـ.

سادساً : ان الله سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم ينتهج هذا المنهج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢)بعد أن ذكر في الأصل الثاني من أصول السعادة: «أن الله تعالى هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من العقل وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل، وبما هداهم إلى أنواع من العلم يُمْكِنُهم أن يتوصلوا بها إلى سعادة الآخرة، وجعل في فِطَرِهِم محبة لذلك .. قال: لكن قد يُعْرِضُ الإنسان عن طلب علم ما ينفعه وذلك الإعراض أمر عدمي. لكن النفس من لوازمها: الإرادة والحركة فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله، ومتى لم تحيى هذه الحياة كانت ميتة وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها، فلا هي حية متنعمة بالحياة ولا ميتة مستريحة من

١- إغاثة اللهفان (٣٩/١) .

٢- الفتاوى (٢٠٦،٢٠٥/٨) .

العذاب. قال تعالى: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيي﴾ فالجزاء من جنس العمل. لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة ولا ميتاً عديم الإحساس، كان في الآخرة كذلك، والنفس إن علمت الحق وإرادته فذلك من تمام إنعام الله عليها، وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله، ومرادات سيئة فهذا تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده وهذا عدم»أ هـ.

سابعاً : أن فيها بيان لا عظم منهج موحد تجعل القائمين به صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، وتجعل الداعين إليه أشداء على الكفار رحماء بينهم. مستمسكين بالعروة الوثقى ملتزمين متسمّين بها وداعين إليها . تُحيط بهم دعوتهم لا إله إلا الله إحاطة السوار بالمعصم لا يقوم لهم أي عدو ولا يُفرّقُ صفهم أي منافق.

وقال البخاري رحمه الله تعالى : «**باب : العلم قبل القول والعمل ، والدليل قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل** » ○

○ وكذلك عقَّب المؤلف هذه المسائل بفقه البخاري في صحيحه مستدلا على **أهمية المسألة الأولى وهي العلم**. وقد ذكر ابن القيم في مفتاح دار السعادة نيّفاً وخمسين بعد المئة من وجوه فضل العلم وشرفه وأهميته. وقد سبق الإشارة إلى ذلك. نذكر منها ما يكفي شاهداً على أهمية هذه المسألة.

أولا : قال في الوجه السابع والستين(١):

«ان النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل **الأعمال** إيمان بالله، فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها .

والإيمان له ركنان:

أحدهما : معرفة ما جاء به الرسول والعلم به.

والثاني : تصديقه بالقول والعمل. والتصديق بدون العلم والمعرفة محال، فإنه فرع العلم بالشيئ المصدق به. **فإذاً العلم من**

١- (٨١/١) .

الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة، فالعلم إذاً أجل المطالب وأسنى المواهب»أ هـ.

ثانياً : الوجه الحادي والسبعون(١):

«**ان حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء**، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين. وحاجة الأنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نَفَسٍ من أنفاسه، فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لأيمان أو حكمة فإن فارقه الأيمان أو حكمه في نَفَسٍ من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب. وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يُحتاج إليه كل وقت»أ هـ.

١- (٨١/١) .

ثالثاً : الوجه السابع والثلاثون بعد المائة(١):

إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين. فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم. قال الأوزاعي: قال ابن شهاب الزهري: الإعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فَنَعَشُ(٢) العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله. وقال ابن وهب: أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال: بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون: الإعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فَنَعَشُ العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله»أ هـ.

كما أن في فقه البخاري واستدلال المؤلف إشارة إلى ما يلي:

أولا : أهمية الترتيب في هذه المسائل الهامة، وهذا النهج العظيم كما قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾.

١- (١٦٤/١) .

٢- أي ارتفاعه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) : «وقال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً». فهم كانوا يتعلمون الإيمان ثم يتعلمون القرآن. وقال بعضهم في قوله: ﴿نور على نور﴾ قال: نور القرآن على نور الإيمان. كما قال: ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾. وقال السدي في قوله: ﴿نور على نور﴾ نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

فتبين أن قوله: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ يعني: هدى الإيمان. ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي: من الله يعني القرآن شاهد من الله يوافق الإيمان ويتْبعه، وقال: ﴿يتلوه﴾ لأن الإيمان هو المقصود، لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته».

قلت : وروى الحاكم عن ابن عمر قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدثنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تَعلّمون أنتم القرآن. ثم قال: لقد رأيت رجالا يُؤتى احدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمْره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه ينثره نثر الدقل».

وقد سبق بيان هذه المسألة مما يغني عن إعادته.

١- دقائق التفسير (٢/٢٣٦) .

ثانياً : أهمية تعلم الإيمان والعقيدة الصحيحة أولا، وهو تعلم أصول الدين وقواعده . إذ لا قيمة للعمل الصالح والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله إذا لم يسبقه إيمان وعقيدة صحيحة، بل إن حقيقة العمل الصالح هو العمل بهذا الإيمان الصحيح.

وحقيقة الدعوة إلى الله هو الدعوة إلى هذا الإيمان وهذه العقيدة الصحيحة. وكذلك لم يشرع الجهاد إلا لإخراج الناس من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومن ظلام الشرك والعقيدة الفاسدة إلى نور الإيمان والعقيدة الصحيحة، فرجع الأمر كله إلى هذا الأصل العظيم.

وصح عنه ﷺ أنه قال: (ألا إني أوشك أن أدعى فأجيب، فيليكم عمال من بعدي يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك دهراً ثم يليكم عمال من بعدهم يقولون مالا يعلمون ويعملون مالا يعرفون، فمن ناصحهم ووازرهم وشد على أعضادهم فأولئك قد هلكوا وأهلكوا، خالطوهم بأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم واشهدوا على المحسن بأنه محسن وعلى المسيئ بأنه مسيئ).

وفي أثر ابن عمر السابق شاهد على ذلك.

ثالثاً : أهمية العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفته بأسمائه وصفاته. فهو أصل عبادته الذي جاءت به الرسل وهو أشرف العلوم وأجلها وأصل كل علم.

قال ابن القيم(١) : «ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى المَلِك الحق المبين، ومفتقر إليه في تحقيق ذاته وأينيته، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقيق ذاته إليه.

فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيئ ومليكه وموجده »أ هـ.

قلت : وقد نبه المؤلف إلى ذلك بذكره للأصول الثلاثة ضمن مسألة العلم وهي معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة. وسيأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

كتبه : خالد بن سليمان بن أحمد آل مسعود

١- مفتاح دار السعادة (٨٦/١) .

ستة أصول عظيمة مفيدة، جليلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب إمام الدعوة الإسلامية وحامي حمى الملة الحنيفية:

من أعجب العجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بينها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلط فيها أذكياء العالم، و عقلاء بني آدم، إلا أقل القليل.

(**الأصل الأول**) إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله ، و كون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم صار على أكثر الأمة ما صار: أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، و أظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم.

(**الأصل الثاني**) أمر الله بالاجتماع في الدين و نهى عن التفرق، فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، و نهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين و نهاهم عن التفرق فيه. ويزيده وضوحاً ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع لا يقوله إلا زنديق أو مجنون.

(الأصل الثالث) أن من تمام الاجتماع السمع و الطاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشياً، فبين النبي ﷺ هذا بياناً شائعاً ذائعاً بكل وجه من أنواع البيان شرعاً وقدراً ، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟.

(الأصل الرابع) بيان العلم و العلماء و الفقه والفقهاء ، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** - إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام - **يا بني إسرائيل**﴾ الآية.

ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم.

(الأصل الخامس) بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله والمنافقين والفجار. ويكفي في هذا آية في آل عمران وهي قوله ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ الآية. وآية في المائدة و هي قوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ الآية، وآية في يونس وهي قوله ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ ثم صار الأمر - عند أكثر من يدعي العلم و أنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع - إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل، و من تبعهم فليس منهم. يا ربنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء.

(الأصل السادس) رد السنة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أي السنة التي وضعها الشيطان هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر، فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون لأجل صعوبتهما. سبحان الله وبحمده. والأمر يرد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى أمر الضروريات العامة **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً و من خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايصرون * و سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر و خشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾.**

آخره و الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على نبينا محمد و على آله وصحبه و سلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٣-٦
حكم طلب العلم وبيان ما يجب على المسلم من العلم في نفسه ومن تحت ولايته، وكذلك ما يلزم ولاة الأمر من ذلك	٧-١٠
معنى المسألة ووجه كون هذه المسائل ممايجب تعلمه	١١
المسألة الأولى: العلم: وما يتعلق به مايلي:	١٢-٤٠
أولاً: منزلة العلم وفضله	١٣-١٥
ثانياً: أفضل العلوم وأقسامها ومراتبها:	١٦-١٧
ثالثاً: احتياج العبد إلى العلم بالحق وكون القلب إذا خلى من علم الحق كان معرضاً لعلم الباطل	١٧-٢٢
رابعاً: طرق الناس في طلب العلم والدين	٢٣-٢٧
خامساً: ما يُذم من العلم وما يَحْرمُ	٢٨-٣٥
الوجه الأول: قد يذم العلم لكونه يخالف ماجاء به الرسول ﷺ	٢٨-٢٩
الوجه الثاني: قد يذم العلم لكون عقل الانسان يعجز عن فهمه وحمله	٢٩-٣٢
الوجه الثالث: قد يذم العلم لكونه يدعو صاحبه أو يعينه على مايضره	٣٢-٣٤
الوجه الرابع: قد يذم العلم لكونه لا منفعة فيه لعامة الناس أولكونه يصد عما يحتاج إليه الإنسان أو يصده عما هو أنفع له منه	٣٤-٣٥
سادساً: العلم بالدنيا والاغترار به	٣٥-٤٠
أهم المعارف وأجلّها هي معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الاسلام بالأدلة	٤١

الموضوع	رقم الصفحة
المسألة الثانية: العمل به	٤٢-٥٣
شروط العمل الصالح:	
الأول: الإخلاص	٤٢-٤٤
الثاني: المتابعة	٤٤-٤٨
الثالث: أن يكون العمل مبنياً على اساس الإيمان والعقيدة الصحيحة	٤٨-٥٠
الرابع: صدق العزيمة	٥٠-٥٢
الحذر كل الحذر من مبطلات الاعمال	٥٢-٥٣
المسألة الثالثة الدعوة إليه	٥٤-٥٨
حقيقة الدعوة إلى الله وما تتضمنه	٥٥-٥٦
حكم الدعوة إلى الله وعلى من تجب	٥٦-٥٧
القيام بالواجب من الدعوة الواجبة وغيرها بثلاثة شروط	٥٧-٥٨
الرابعة: الصبر على الأذى فيه	٥٩-٦٩
ضرورة الصبر لحتمية الابتلاء	٥٩-٦٠
التأمل في حكمة الله تعالى فيما ابتلى به عباده وصفوته من خلقه	٦١-٦٤
التأمل في حال أبينا آدم ﷺ	٦١
التأمل في حال أبينا الثاني نوح ﷺ	٦١
التأمل في حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ	٦٢
التأمل في حال الكليم موسى عليه الصلاة والسلام	٦٢
التأمل في حال المسيح ﷺ	٦٢-٦٣

الموضوع	رقم الصفحة
التأمل في حال نبينا محمد ﷺ	٦٣
حكم الصبر	٦٥
وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً	٦٥-٦٩
العامل بلا علم كالسائر بلا دليل	٧٠
تفسير سورة العصر	٧١-١٥٣
تفسير قوله تعالى ﴿والعصر﴾ وبيان الحِكَم المستفادة منها	٧١-٧٣
تفسير قوله تعالى ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ وبيان مادلت عليه	٧٤-٧٩
تفسير قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا﴾	٨٠-٨٢
وبيان حقيقة الإيمان ومنزلته من الدين	
تفسير قوله تعالى ﴿وعملوا الصالحات﴾ وبيان أنه ثمرة الإيمان الصادق	٨٣-٨٥
والعلم النافع وركنهما الركين، والدليل على متابعة الرسول ﷺ	
تفسير قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق﴾ وبيان حقيقة التواصي	٨٦-١٠٤
والحق الذي يتواصى به المؤمنون والذي يشمل مايلي:	
الدعوة إلى الله	٨٧
النصيحة	٨٧-٩٠
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩٠-٩٣
لزوم جماعة المسلمين	٩٣-٩٥
مادل عليه قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق﴾	٩٥-١٠٤
أولاً: أهمية مقام الدعوة إلى الله وما يندرج فيه	٩٥-٩٧

الموضوع	رقم الصفحة
ثانياً: على المسلم أن يبادر إلى التواصي بالحق مع الناس والدعوة إليه	٩٧-١٠٠
ثالثاً: أن التواصي والدعوة إلى الله وماتتضمنه لايكون إلا بالحق	١٠٠
رابعاً: أن كل من دعا إلى الله بغير الحق فقد دعا إلى بدعة وضلاله	١٠١-١٠٤
تفسير قوله تعالى ﴿وتواصوا بالصبر﴾ وبيان حقيقة الصبر	١٠٥-١٣١
أنواع الصبر الثلاثة	١٠٦
هذا النهج العظيم يحتاج إلى صبر بأنواعه الثلاثة في جميع مراتبه	١٠٦-١٢١
إحتياج الإيمان إلى الصبر وبيان عظم مكانة الصبر من الإيمان	١٠٦-١١٠
إحتياج العمل الصالح إلى الصبر وبيان إقتران الصبر بالأعمال الصالحة	١١٠-١١٤
إحتياج التواصي بالحق وما يتضمنه إلى الصبر وتنبيه الدعاة إلى الله من الوقوع فيما يُخّل بالصبر	١١٤-١١٩
إحتياج الصبر إلى الصبر	١١٩-١٢١
مما يدل عليه قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ مايلي:	١٢١-١٣١
أولاً: أهمية الصبر والتنبيه على الإعتناء به	١٢١-١٢٢
ثانياً: أنه لايمكن للعبد أن يصبر على هذاالنهج العظيم ويثبت عليه إلا بإيمان كامل ويقين صادق وذلك هو الحق	١٢٢-١٢٦
ثالثاً: أن من التواصي بالحق التواصي بالمرحمة وبيان احتياج الداعي إلى الله رحمة الخلق مع الصبر. وحتى لايختلط عليه الامر فيظن قسوة القلب صبراً	١٢٦-١٢٩
رابعاً: أن الصبر على الحق والدعوة إليه والجهاد في سبيله	١٢٩-١٣٠

الموضوع	رقم الصفحة
دليل على صدق الإيمان وعظم المحبة لله عز وجل	
خامساً: أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين	١٣٠-١٣١
بيان مادلت عليه السورة بمجموعها	١٣٢-١٥٣
أولاً: أن الترتيب في هذا النهج العظيم لازم	١٣٢-١٣٤
وبدونه يحصل الخلل والخسران ولا يستقيم لصاحبه أمر	
ثانياً: أن كل مرتبة ثمرة لما قبلها ودليل على وجودها	١٣٥-١٤٥
وصحتها، وبيان تفاوت الناس في إقامة هذا النهج	
ثالثاً: أن هذا النهج العظيم كما هو نهج عامة الناجين	١٤٦-١٤٧
من هذه الأمة فهو نهج أئمتهم من الأنبياء والدعاة إلى الله	
رابعاً: أن أي داعي أو دعوة لا تنتهج هذا النهج علماً	١٤٧
وعملاً ودعوة فهى دعوة باطلة ولو تسمّت باسم الإسلام والصلاح	
خامساً: أن من قام بهذا النهج العظيم وكمّله فقد تكفل	١٤٨-١٥٢
الله له بالنصرة والتمكين والعزة والتأييد ودفع كيد الأعداء	
سادساً: أن سعادة الدارين منوطة بإقامة هذا النهج	١٥٢-١٥٣
العظيم وبدونه تكون الشقاوة والهلكة	
التعليق على قول الشافعي رحمه الله تعالى	١٥٤-١٦٠
«لو ما نزل الله حُجّة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»	
وبيان أهمية السورة فيما يلي:	
أولاً: أنها من السور المكية التي تمتاز ببيان	١٥٤-١٥٥

الموضوع	رقم الصفحة
أصول الدين وقواعده التي تبنى عليها أمور الشريعة	
ثانياً: أنها اشتملت على أهم مقاصد القرآن الكريم	١٥٥
ثالثاً: أنها تضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني	١٥٥-١٥٦
التي لا كمال للإنسان إلا بها، ومن طلب الكمال في غيرها خسر	
رابعاً: أنها اشتملت على المطالب العالية لصاحب	١٥٦-١٥٧
الهمة العالية والمقاصد العظيمة لمن أراد الكمال	
خامساً: أن فيها كمال السعادة للإنسان في الدارين	١٥٨-١٥٩
والتي لا سعادة إلا بها	
سادساً: أن الله سبحاه حكم بالخسران حكماً عاماً	١٥٩-١٦٠
على كل من لم ينتهج هذا المنهج	
سابعاً: أن فيها بيان لأعظم منهج موحد	١٦٠
التعليق على قول البخاري رحمه الله تعالى:	١٦١-١٦٦
"باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى:	
﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فبدأ بالعلم قبل القول والعمل	
بيان أهمية المسألة الأولى وهي العلم بالوجوه التالية:	١٦١-١٦٣
أولاً: أن العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد	١٦١-١٦٢
ثانياً: أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسد إلى الغذاء	١٦٢
ثالثاً: إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب	١٦٣
لعلم تذهب الدنيا والدين	

الموضوع	رقم الصفحة
مايشير إليه فقه البخاري واستدلال المؤلف:	١٦٣-١٦٦
أولاً: أهمية الترتيب في هذه المسائل الهامة وهذا النهج العظيم علماً وعملاً	١٦٣-١٦٤
ثانياً: أهمية تعلم الإيمان والعقيدة الصحيحة أولاً	١٦٥
ثالثاً: أهمية العلم بالله سبحانه وتعالى ومعرفته بأسمائه وصفاته	١٦٦
ستة اصول عظيمة مفيدة، جليلة	١٦٧-١٦٩
الفهرس	١٧٠-١٧٦